معرفة الوحي

الإطار المرجعي لمعرفة العقل

إعداد

أ.د/ عبد السلام بن مقبل المجيدي

أستاذ الدراسات القرآنية / كلية الشريعة/ جامعة قطر

ندوة علمية نظمتها

إدارة البحوث والدراسات الإسلامية بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

يوم الثلاثاء: ١٥ ربيع الثاني ١٤٤٧هـ الموافق لـ ٢٠٢٥/١٠/٧م

بعد صلاة العشاء، في مسجد الإمام محمد بن عبد الوهاب

محاور الندوة

المحور الأول: معرفة الوحي: الإطار المرجعي لمعرفة العقل

المحور الثاني: معرفة الوحي: القيم اليقينية والدلالات المعرفية

المحور الثالث: معرفة الوحي: الضابط المنهجي لحركة العقل (نماذج من التراث)

المحور الرابع: الإطار المرجعي لتشكيل مركز الرؤية على طريق الإبصار

مقدمة

يمثل التفاعل بين الوحي والعقل إحدى القضايا المحورية في الفكر الإسلامي، وهي علاقة تأسست في جوهرها على التكامل والتناغم لا على الصراع أو الإقصاء .فالإسلام، من خلال مصدريه الأساسيين، القرآن الكريم والسنة النبوية، أولى العقل عناية فائقة واعتبره مناط التكليف وأداة التمييز بين الحق والباطل، إلا أنه لم يتركه مطلقًا دون هداية، بل وضع الوحي كإطار مرجعي شامل يوجه حركته ويصونها من الزلل والانحراف.

وتكمن إشكالية البحث في استجلاء طبيعة هذه العلاقة التكاملية، والإجابة عن سؤال: كيف يشكّل الوحي الإطار المرجعي المعرفي والقيمي والمنهجي للعقل في المنظور الإسلامي؟

وتنبثق أهمية هذا البحث من الحاجة إلى تأصيل رؤية متوازنة تعيد للعقل مكانته كأداة فهم واجتهاد، وتؤكد في الوقت ذاته على حاكمية الوحي كمصدر للمعرفة اليقينية والحقائق الكبرى التي يعجز العقل عن إدراكها منفردًا.

ويهدف هذا البحث إلى تحليل أبعاد العلاقة بين الوحي والعقل من خلال تحقيق الأهداف التالية: بيان كيفية حث القرآن الكريم على تفعيل العقل وتنميته، وتحديد القيم المعرفية اليقينية التي يقدمها الوحي، واستعراض الضوابط المنهجية التي أرساها لضبط حركة العقل، وصولًا إلى بلورة إطار مرجعي متكامل لتشكيل رؤية بصيرة لدى المسلم.

ولتحقيق هذه الأهداف، اعتمد البحث منهجًا تحليليًا واستقرائيًا لنصوص القرآن والسنة، مع عرض نماذج من التراث الفكري الإسلامي وآراء العلماء والمفكرين الذين تناولوا هذه القضية.

وتكون البحث من مقدمة وتمهيد وأربعة محاور، ثم خاتمة:

تمهيد: التعريف بالوحي والعقل لغة واصطلاحًا.

المحور الأول: معرفة الوحي: الإطار المرجعي لمعرفة العقل.

المحور الثاني: معرفة الوحي: القِيَم اليقينية والدلالات المعرفية.

المحور الثالث: معرفة الوحي: الضابط المنهجي لحركة العقل (نماذج من التراث).

المحور الرابع: الإطار المرجعي لتشكيل مركز الرؤية على طريق الإبصار.

تمهيد

التعريف بالوحي والعقل لغة واصطلاحًا

تعريف الوحي لغةً

يدور معنى الوحي في اللغة حول **الإعلام الخفي السريع**، وأصله الإشارة السريعة والكلام الذي يُخفى عن الآخرين.

قَالَ أَبُو الْهَيْثَم: «يُقَال وحيْتُ إِلَى فلَان أَحِي إِلَيْهِ وَحْيًا وأَوْحَيْتُ إِلَيْهِ أُوحِي إيحاءً: إِذا أشرتَ إِلَيْهِ وأومأْتَ»(١).

وقال الزمخشري: أوحى إليه وأومى بمعنى، ووحيتُ إليه وأوحيتَ إذا كلمته بما تخفيه عن غيره(٢).

وقال الراغب: أصل الوحى الإشارة السريعة، ولتضمن السرعة قيل: «أمرٌ وحيٌ»(٣).

ويأتي على عدة صور بحسب السياق، منها:

١) **الإشارة بالجوارح**: كما في قوله تعالى عن زكريا: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١] أي أشار إليهم.

٢) **الإلهام الغريزي**: كالوحي إلى النحل في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨].

٣) **الإلهام الفطري (إلقاء المعنى في النفس)**: كالوحي إلى أم موسى في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى﴾ [القصص: ٧].

٤) **وسوسة الشيطان وإلقاؤه الخفي**: كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢١](٤).

فالخلاصة أن المعنى اللغوي عام يشمل كل إعلام يتم في خفاء وسرعة، سواء كان بإشارة، أو كتابة، أو إلهام، ولا يختص مصدره بالله تعالى ولا متلقيه بالأنبياء.

---

(١) تهذيب اللغة (٥/ ١٩٢).

(٢) أساس البلاغة (٢/ ٣٢٤).

(٣) المفردات في غريب القرآن (ص: ٨٥٨).

(٤) ينظر: الوحي المحمدي (ص. ٢٥).

تعريف الوحي اصطلاحًا:

الوحي في الاصطلاح الشرعي هو **أخص من المعنى اللغوي**، إذ يختص مصدره بالله تعالى، وموارده (متلقيه) بمن اصطفاهم من الأنبياء والرسل. وقد عرّفه العلماء من عدة جهات:

١) **باعتباره فعل الإيحاء (المصدر)**: هو **"إعلام الله أنبياءه بما يريد أن يبلغه إليهم من شرع أو كتاب بواسطة أو غير واسطة"**. وهذا التعريف يبرز خصوصية المصدر (الله) والمتلقي (الأنبياء).

٢) **باعتباره أثرًا في نفس النبي**: هو **"عِرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من عند الله، بواسطة أو بغير واسطة"**. وهذا التعريف يركز على طبيعة الوحي التي يمر بها النبي.

٣) **باعتباره المُوحَى به (اسم المفعول)**: هو **"كلام الله تعالى المنزل على أحد أنبيائه"** أو ما أنزله الله عليهم من شرائع وأنباء غيبية.

فالوحي الشرعي هو علاقة خاصة بين الله ورسله، يتم فيها إعلامهم بالهدى والعلم بطريقة خفية وسرية غير معتادة للبشر(١).

تعريف العقل لغة:

قال الخليل رحمه الله: «العَقْل: نقيض الجَهْل. عَقَل يَعْقِل عَقْلاً فهو عاقل. والمَعْقُولُ: ما تَعْقِلُه في فؤادك. ويقال: هو ما يُفْهَمُ من العَقْل»(٢).

وذكر ابن فارس رحمه الله: أن عَقَلَ «أصلٌ واحد منقاس مطرد، يدلُّ عُظْمُه على حُبْسة فى الشَّىء أو ما يقارب الحُبْسة. من ذلك العَقْل، وهو الحابس عن ذَميم القَول والفِعل» (٣).

تعريف العقل اصطلاحًا

اختلف العلماء في تعريف العقل وحقيقته اختلافًا كثيراً، ولعل أجمع ما قيل فيه قول الغزالي ومن وافقه بعدم إمكان حده بحد واحد يحيط به، لأنه يطلق بالاشتراك على خمسة معان: "أحدها" إطلاقه على الغريزة التي يتهيأ بها الإنسان لدرك العلوم النظرية وتدبير الأمور الخفية. "والثاني" إطلاقه على بعض الأمور الضرورية. وهي التي تخرج إلى الوجود في ذات الطفل المميز بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات. "والثالث" إطلاقه على العلوم المستفادة من التجربة. فإنَّ من حنَّكته التجارب يقال عنه

---

(١) ينظر: المدخل لدراسة القرآن الكريم (ص: ٨٤).

(٢) العين للخليل (١/ ١٥٩).

(٣) معجم مقاييس اللغة (٤/ ٦٩).

أنه عاقل. ومن لا يتصف بذلك يقال عنه غبي جاهل. "الرابع" إطلاقه على ما يوصل إلى ثمرة معرفة عواقب الأمور، بقمع الشهوات الداعية إلى اللذات العاجلة التي تعقبها الندامة. فإذا حصلت هذه القوة سمي صاحبها عاقلاً. "والخامس" إطلاقه على الهدوء والوقار. وهي هيئة محمودة للإنسان في حركاته وكلامه. فيقال: فلان عاقل. أي عنده هدوء ورزانة [1].

(١) ينظر: المستصفى (١/ ٢٣)، المسودة (ص: ٥٥٨)، شرح الكوكب المنير = شرح مختصر التحرير (١/ ٧٩).

المحور الأول

معرفة الوحي: الإطار المرجعي لمعرفة العقل

في المنظور الإسلامي، لا يُنظر إلى الوحي والعقل بوصفهما مصدرين متنافسين للمعرفة، بل هما مصدران متكاملان، لكل منهما مجاله وحدوده، فالعقل هو مناط التكليف الشرعي، والأداة المنهجية لفهم الوحي والكون .ويُعَدُّ الوحي الإلهي، المتمثل في القرآن والسنة الصحيحة، المصدر الأعلى والأصلي للمعرفة، فهو يقدم للإنسان الحقائق الكبرى التي يعجز العقل عن إدراكها بمفرده، خاصة في مجال الغيبيات وأصل الوجود والمصير .قال الله عز وجل مبينًا أهمية الوحي: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩] .قال ابن كثير رحمه الله: «فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق، وعلم ما سيأتي، وحكم كل حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم، ومعاشهم»(١).

أولًا: العقل في القرآن الكريم:

الإسلام دين العقل والفكر، وليس كذلك الكتب السابقة، فإنك «تقرأ قاموس الكتاب المقدس فلا تجد فيه كلمة (العقل) ولا ما في معناها من أسماء هذه الغريزة البشرية التي فَضُل الإنسانُ بها جميعَ أنواع هذا الجنس الحي كاللبِّ والنُّهى، ولا أسماء التفكر والتدبر والنظر في العالم التي هي أعظم وظائف العقل، ولا أن الدين موجه إليه، وقائم به وعليه. أما ذكر العقل باسمه وأفعاله في القرآن الحكيم فيبلغ زهاء خمسين مرة»(٢).

وذم الله عز وجل المعطِّلين لعقولهم فشبههم بالأنعام، فقال: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٤]، مما يدل على أن إهمال العقل هو خروج عن مقتضى الإنسانية.

وقد عبر القرآن الكريم عن العقل في مواضع كثيرة، وذلك كما يأتي:

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٥٩٤.

(٢) تفسير المنار ١١/ ٢٠٢.

١) لم يرد لفظ "العقل" باسمه الصريح في القرآن الكريم، ولكن وردت مشتقاته بصيغة الفعل ٤٩ مرة على خمس صيغ فعلية: "تعقلون"، "يعقلون"، "عقلوه"، "نعقل"، و"يعقلها".

ويبصرنا ذلك بأن الأصل تحريك العقل، وإعماله، والقيام بوظيفته، وتفعيله، وإلا فإن الأصل أن كل إنسان يولد ومعه عقله كما يولد ومعه بقية أجزاء جسمه.

٢) استخدم القرآن ألفاظًا أخرى للدلالة على العقل مثل "الألباب"، "النهى"، و"الحِجْر"، وحثّ على "التفكر" والتذكر والادكار و"الاعتبار" في مواضع عديدة.

٣) حدد الله عز وجل مكان العقل ذي الإرادة وهو القلب، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

٤) لو راجعنا مواضع مشتقات "عقل" مُرَتَّبة حسب ترتيب سور المصحف الشريف لبدت لنا ملامح عديدة في تفعيل القرآن للعقل وتنميته، وحث الإنسان على إعماله على أوسع نطاق، وهذا ما يأتي تفصيله في المطلب الأول.

ثانيًا: العقل في السنة النبوية الشريفة:

لم يقتصر الحث على إعمال العقل على القرآن الكريم، بل عززت السنة النبوية هذا المنهج بشكل عملي، ويتجلى ذلك في مستويين رئيسيين:

الأول: اعتبار العقل شرطًا أساسيًا للتكليف، فقد أجمع المسلمون على أن من لا عقل له كالمجنون أو الصبي لا تجب عليه الأحكام الشرعية. ويؤكد هذا الأصل الحديث الشريف: «رُفِعَ القلم عن ثلاثةٍ: عن النَّائم حتى يستيقظَ، وعن الصَّبيِّ حتى يَحتَلِمَ، وعن المجنونِ حتى يَعقِلَ»(١).

الثاني: إقرار مشروعية الاجتهاد القائم على العقل عند عدم وجود النص. ويُعد حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه أصلًا في هذا الباب، حين بعثه النبي صلى الله عليه وسلم إلى اليمن فسأله: "بِمَ تَقْضِي؟"، فأجابه بأنه سيقضي بالكتاب ثم بالسنة، فإن لم يجد قال: "أَجْتَهِدُ رَأْيِي وَلَا آلُو". فأقر النبي ﷺ اجتهاده

(١) سنن أبي داود، كتاب الحدود، باب في المجنون يَسرقُ أو يُصيبُ حدًّا، حديث رقم (٤٤٠٣)، والحديث منقطع.

وقال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ اللهِ لِمَا يُرْضِي رَسُولَ اللهِ»[١]. وبهذا، يُعتبر الحديث أصلًا في مشروعية الاجتهاد العقلي المنضبط بضوابط الشرع.

ثالثًا: أقوال العلماء والمفكرين:

بناءً على هذه الأصول من الكتاب والسنة، بلور العلماء المسلمون مبادئ راسخة تضبط العلاقة التكاملية بين العقل والوحي. فقد أصَّل مفكرون كابن رشد (ت: ٥٩٥ هـ)[٢]، وابن تيمية (ت: ٧٢٨هـ) لمبدأ "درء تعارض العقل والنقل"، الذي يؤكد أن العقل الصريح (البرهان) لا يمكن أن يتعارض مع النقل الصحيح (النص الثابت)، وأن أي تعارض ظاهري مرده إما لشبهة في العقل أو لعدم صحة في النقل[٣].

وقد صوَّر الإمام الغزالي (ت: ٥٠٥ هـ): هذه العلاقة بقوله إن "العقل كالبصر، والشرع كالشعاع"، فلا غنى لأحدهما عن الآخر[٤].

وتوَّج الإمام الشاطبي (ت: ٧٩٠هـ) هذه المكانة بجعله "حفظ العقل" أحد المقاصد الكلية الخمسة للشريعة الإسلامية، مما يمنحه حماية تشريعية وقيمة عليا في المنظومة الإسلامية[٥].

رابعًا: أهم المؤلفات في العلاقة بين الوحي والعقل:

اهتم المفكرون المسلمون قديمًا وحديثًا بقضية العقل وعلاقته بالدين، وألفوا في ذلك كتبًا كثيرة، من أهمها:

١) "درء تعارض العقل والنقل" لابن تيمية: وهو موسوعة ضخمة تعالج العلاقة بين العقل والنصوص الشرعية وتثبت توافقهما.

٢) "فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال" لابن رشد: رسالة مكثفة تؤسس للتوافق بين الفلسفة والدين.

---

(١) مسند أحمد، حديث رقم (٢٢٠٠٧)، والترمذي، أبواب الأحكام عن رسول الله ﷺ، بَابُ مَا جَاءَ فِي القَاضِي كَيْفَ يَقْضِي، حديث رقم (١٣٧٦)، وقال: "هذا حديثٌ لا نَعْرِفهُ إلَّا من هذا الوَجْهِ، وَلَيْسَ إسْنادُهُ عِنْدِي بِمُتَّصِلٍ".

(٢) ينظر: فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال لابن رشد (ص٣٢).

(٣) ينظر: درء تعارض العقل والنقل (١/ ١٤٧).

(٤) ينظر: إحياء علوم الدين (١/ ١١٤).

(٥) ينظر: الموافقات للشاطبي (٢/ ٩).

٣) "مناهج الأدلة في عقائد الملة" لابن رشد: كتاب يبين المناهج العقلية التي استخدمها القرآن في إثبات العقائد.

٤) "الموافقات في أصول الشريعة" للإمام الشاطبي: وهو كتاب مقاصدي بامتياز، يوضح كيف أن أحكام الشريعة معقولة المعنى وتهدف إلى تحقيق مصالح الناس.

٥) "مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة" لابن قيم الجوزية: كتاب يفيض بالحث على التفكر والتدبر في آيات الله الكونية والشرعية.

٦) "العقل وفضله" لابن أبي الدنيا: وهو من المؤلفات المتقدمة التي جمعت الآثار والنصوص في فضل العقل.

٧) "تهافت الفلاسفة" للغزالي.

٨) "تهافت التهافت" لابن رشد: وهما مثال على الجدال العقلي العميق حول حدود العقل ودوره في فهم الوجود.

٩) "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد" (تفسير التحرير والتنوير) للشيخ محمد الطاهر بن عاشور: يُعد هذا التفسير مثالًا تطبيقيًا لإعمال العقل في فهم النص القرآني وتقدير جوانبه البلاغية والتشريعية.

١٠) "إعمال العقل" للدكتور محمد عابد الجابري: وهو من الكتب الحديثة التي تناولت قضية العقل في التراث الإسلامي بالتحليل والنقد.

وغيرها من المؤلفات.

المطلب الأول

مصطلحات العقل في القرآن الكريم ودلالاتها اللغوية والسياقية

أولًا: ألفاظ العقل الصريحة في القرآن الكريم ودلالاتها:

جاء هذا التعبير ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ في ثمانية مواضع في القرآن الكريم ليبصرنا بذلك على مستويات ثلاثة:

الأول: بالنظر إلى آيات الله التي تعبر عن المعجزة الخارقة للعادة، كما في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣]، فالعقل يدرك قدرة الله على الإحياء من خلال آياته.

الثاني: بالنظر إلى آيات الله التي هي وحي أوحاه الله إلى الأنبياء، كما في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٢]، وقوله: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور: ٦١]، فآيات القرآن تفعل العقل وتنميه.

وتزيدنا هاتان الآيتان فوائد خاصة مثل أن العقل يدرك الحكمة والمقاصد من إنزال الأحكام والتشريعات، ويدرك حكمة الآداب الاجتماعية في حفظ المجتمع.

وكما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١]:

من فوائدها الخاصة: العقل هو وسيلة إدراك حكمة الوصايا الإلهية

وكما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢]، ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣].

ومن فوائدها الخاصة: اللغة العربية أعظم وعاء لنمو التفكير عند فهم التعبير.

الثالث: بالنظر إلى آيات الله المبثوثة في الكون كله من الذرات إلى المجرات: كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر: ٦٧].

ويزداد العقل تفعيلًا ونموًا عندما يسمع آيات الله القرآنية تلفت نظره إلى أن يجمع بين آيات الله المادية المشاهدة وبين توقع الغيب القادم، كما في قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٧].

فالعقل يدرك قدرة الله على إحياء القلوب والبعث قياسًا على إحياء الأرض.

دلالة {أَفَلَا تَعْقِلُونَ} بالخطاب والفيبة

١ العقل يمنع من الأفعال المتناقضة، والممارسات الكاذبة: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]

٢ العقل يمنع من الوقوع في التناقضات التاريخية والمنطقية: ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ٦٥]

٣ العقل أداة القرار الصائب عند النظر في المسائل والقضايا المتعددة: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢]

٤ العقل يدفع إلى الوفاء بالعهود والمواثيق حتى لو ترتب على ذلك مخالفة هوى الإنسان: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ ... وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٩]

٥ العقل يتعظ بقصص السابقين ومصائرهم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ...وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١٠٩]

٦ العقل يدرك العبرة من مصارع الغابرين وآثارهم: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٥].

٧ العقل يستدل بسيرة الداعي وصدقه على صدق دعوته: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦]

٨ العقل يدرك أن الداعي المخلص لا يطلب أجرًا دنيويًّا على دعوته: ﴿يَاقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هود: ٥١]

٩ العقل هو وسيلة إدراك قيمة الرسالة الإلهية وشرفها، وعند إدراك ذلك لن يتردد في جعلها أعظم أهداف حياته: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]

١٠ العقل يرفض عبادة ما لا يملك نفعًا ولا ضرًا: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ ....أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٦-٦٧]

السؤال عن تفعيل العقل يزلزل التفكير والعاطفة:

تكرر السؤال عن عقول المخاطبين عند لفت نظرهم إلى ما ينبغي أن يتعقلوه، فورد التعبير بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بالخطاب والغيبة في ١٣ موضعًا، فلننظر كيف يوجه الوحي فيها العقل ليفعله أصحابه، ولينموه:

١) **العقل يمنع من الأفعال المتناقضة، والممارسات الكاذبة:** ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

٢) **العقل يمنع من الوقوع في التناقضات التاريخية والمنطقية:** ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ٦٥].

٣) **العقل أداة القرار الصائب عند النظر في المسائل والقضايا المتعددة:** ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢]، فعند الموازنة بين العاجل الفاني والآجل الباقي لا بد أن يختار العقل الصحيح ما هو خير وأبقى.

٤) **العقل يدفع إلى الوفاء بالعهود والمواثيق حتى لو ترتب على ذلك مخالفة هوى الإنسان؛ لأن** عاقبتها الأخروية مضمونة الخير كما قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

٥) **العقل يتعظ بقصص السابقين ومصائرهم:** ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١٠٩].

٦) **العقل يدرك العبرة من مصارع الغابرين وآثارهم:** ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٥].

٧) **العقل يستدل بسيرة الداعي وصدقه على صدق دعوته:** ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦].

٨) **العقل يدرك أن الداعي المخلص لا يطلب أجرًا دنيويًّا على دعوته:** ﴿يَاقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هود: ٥١].

٩) **العقل هو وسيلة إدراك قيمة الرسالة الإلهية وشرفها، وعند إدراك ذلك لن يتردد في جعلها أعظم أهداف حياته:** ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠].

١٠) **العقل يرفض عبادة ما لا يملك نفعًا ولا ضرًا:** ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦)....أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٦-٦٧].

العقل أساس اكتشاف نظام الكون ليحقق أصحاب العقول بذلك الأهداف الكبرى في الحياة:

يحدد الوحي أعظم هذه الأهداف الكبرى في الحياة، ويمكن إجمالها في الآتي:

الهدف الأول: أن يصل من هذا الاكتشاف إلى اليقين بأن الله لا إله إلا هو الرحمن الرحيم:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، **فهذه الآية جاءت بعد قوله: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾** [البقرة: ١٦٣].

١) **العقل السليم يتعقل أن خلق الكون دليل هائل ضخم على أن الله هو الإله الواحد:** ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

٢) **العقل يستنبط دلائل التوحيد من آيات الله في الطبيعة:** ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٤].

٣) **العقل يستدل بتناسق الظواهر الكونية على وجود منظِّم حكيم:** ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢].

الهدف الثاني: اكتشاف الكون يجعل القلب يتعقل الرابط بين المشاهدة المادية والاعتبار القلبي:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦].

الهدف الثالث: أن يستدل العقل بالظواهر الكونية الدورية المنتظمة (كالحياة والموت والليل والنهار) على قدرة الله:

﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٠].

الهدف الرابع: أن يدرك عظمة رب العالمين من خلال سعة ملكه:

﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨].

الهدف الخامس: أن يفيد من فهم القوانين القائمة في الكون، والتنوع في الخلق، فيستثمرها في إعمار الحياة، ويزداد إيمانًا:

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

ويصف لنا القرآن استثمار تعقلنا لقوانين الحياة، وقوة إفادتنا من ذلك في تنمية الأرزاق والترفيه، فيقول: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ٦٧].

الهدف السادس: أن يستدل بالحاضر على الغائب:

فالعقل يدرك أن الله عز وجل قادر على إحياء القلوب الميتة، وعلى إحياء الموتى بعد فنائهم كما يحيي الأرض الميتة:

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٧].

وينمي القرآن العقل تنمية قوية هائلة ليزداد رسوخًا في التعامل مع اليقينيات الحياتية، فكلما ازداد تأملًا وتفكيرًا ومنعًا لنفسه من الغرور والسفه ازداد نموًا وقوة، وبذلك يزداد يقينًا بوحدانية الخالق، وارتباطًا برحمته ونوره، وهنا يسمى العقل لبًّا كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠)﴾ [آل عمران: ١٩٠].

العقل أساس فَهْمِ نص الوحي والعمل به:

تتضح علاقة العقل بالوحي من كونه أداة لفهم الوحي ومناطًا للتكليف، وذلك كما يأتي:

١) **العقل يدرك معاني الوحي وفق قواعد التعقل المناسبة**، مثل الالتزام بقواعد اللغة التي نزل بها الوحي، ومثل فَهْم المبلِّغ للوحي، وبذلك ينبغي أن يمنع من تحريف لفظه معناه:

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

٢) **من أهم شروط التعقل للوحي أن يعقل المخاطب أساليب اللغة التي نزل بها الوحي:**

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢].

٣) **العقل يميز بين مجرد السماع وفَهْم المعنى والمقصد من الخطاب:**

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

٤) **العقل أداةُ فَهْمِ الأمثال القرآنية العميقة**، وبينه وبين العلم تناسب طردي؛ فزيادة العقل الوهبي والكسبي تكون بزيادة العلم، وزيادة العلم تقتضي زيادة العقل، ونرى ذلك ملخصًا بصورة مكثفة قوية في قول ربنا جل مجده:

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

٥) **العقل مصدر اليقين بقوة توجيهات الوحي في العلاقات الداخلية والخارجية**، وتنظيم الإدارة الحياتية، وتقريب الأصدقاء والمستشارين ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨].

٦) **العقل والوحي تكامل لا استغناء:** من الهداية ما لا يمكن تحصيله إلا بمجيء النبي الهادي، فالعقل وحده لا يكفي! وهذا هو معنى قوله -تعالى جدَّه-: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، وقوله -عزَّ سلطانه-: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٣]، فالعقل هادٍ لأمورٍ دنيويةٍ محدودةٍ، لكنه يفتقر إلى النبي الهادي في المعرفة الكلية للوجود، حيث تتم الهداية إلى أسهل السبل وأسرعها نحو الغايات الحيوية المقصودة من الراحة والنعيم المقيم.

٧) وللأمور الشرعية منها موقع خاص حيث تكون الهداية فيها للمؤمنين حقًّا ﴿فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣]، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٥].

٨) **من أهم وظائف العقل: التفكير الذي ينتج الأفعال العاقلة**، لذلك فإن العقل هو وسيلة الاستمتاع المنضبط، فهو الذي يضبط السلوك الاجتماعي ويدعو إلى الأدب وحسن التعامل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤].

الآثار المترتبة على تعطيل العقل وعدم إعماله:

يترتب على على تعطيل الحق عدة آثار منها:

١) **يتحول مَنْ فَعَل ذلك إلى مرتبة هي شر من مرتبة البهائم:** ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢].

٢) **عدم وجود العقل دليل على أسوأ درجات الانحطاط:** ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [الزمر: ٤٣].

٣) **العقل هو أداة تحويل السمع المجرد إلى فهم وإدراك، وعدم فعل ذلك يجعل السمع كأنه غير موجود:** ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ٤٢].

٤) **الإعراض عن التعقل سبب للعقوبة والضلال:** ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٠٠].

٥) **عدم إعمال العقل نقطة ضعف العدو، ويؤدي ذلك إلى تدمير القوة الإنسانية، والمجتمع الإنساني؛** إذ تسود الأنانية بدلًا من التعاون، وهناك يسود التفرق والنزاع والضعف: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤].

٦) **عدم إعمال العقل من أهم صفات الكافرين، فهم ضد العقل:** ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ٦٥].

٧) **عدم إعمال العقل يؤدي إلى تضييع أعظم فرص الحياة مثل الشعور بقيمة الصلاة:** ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ٥٨].

٨) **عدم إعمال العقل يضيع على الإنسان النظر في الكون وفي سننه وقوانينه،** فلا ينتفع بها، ولا يصل منها إلى معرفة خالقها: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

٩) **عدم إعمال العقل ينتج اختراع دين تخريفي محرف:** ﴿مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣]، ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٦-٦٧].

١٠) **عدم إعمال العقل يسبب أسوأ النكسات، وأخطر النتائج في المستقبل،** والكفار هم الذي يحاربون العقل، ولذلك سيندمون عندما يواجهون نتائج أعمالهم: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

وبين الله عز وجل أن للعقل مع وسائل المعرفة قوة هائلة تترتب عليها مسؤولية مستقبلية كبيرة، فقال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]

ثانيًا: لفظ الألباب (أصحاب العقول) ودلالاته:

آيات "أولو الألباب" في القرآن الكريم: الوحي ينمي العقل ليصل إلى مرحلة (اللُّب)

ورد ذكر {أولو الألباب} في (١٦) موضعًا في القرآن الكريم، فمَنْ هذه الفئة الخاصة من أصحاب العقول؟ وأين يبدو الجمال القرآني في اختيار هذه المصطلح أولو الألباب؟

الجواب:

عرَّفهم الله عز وجل تعريفًا دقيقًا عظيمًا، فذكر لهم عدة صفات تميزهم وترفع قدرهم:

الصفة الأولى: يستمعون القول فيتبعون أحسنه: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٨].

الصفة الثانية: إعمال التفكر فيما حولهم:

١) التفكر في خلق الكون مادة وزمنًا ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، فلا يحتاجون إلى أن تُلفت أنظارهم إلى التفاصيل، وهذا هو الفرق بين هذه الآية في سورة آل عمران التي اقتصرت على خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، وآية سورة البقرة التي لفت النظر فيها إلى سبعة تفاصيل.

٢) التفكر في دورة الحياة ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٢١].

الصفة الثالثة: يدركون حقيقة التشريع الإلهي ومقاصده السامية، فمن ذلك إدراك أن القصاص حياة: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاأُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

الصفة الرابعة: يدركون عظمة التزود بالتقوى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَاأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

الصفة الخامسة: يجمعون بين العلم العميق والحكمة في تطبيق ذلك العلم، والعاطفة الصادقة، فهم أهل التأثر والتذكر، ولذا ذكر الله عز وجل التذكر في ختام الآيات الآتية:

١) الآية التي تذكر أن الله عز وجل منحهم الحكمة في التصرفات: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

٢) والآية التي تذكر أن الله منحهم العلم العميق ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧].

٣) والآية التي تذكر أن الله أعطاهم اليقين بما يعلمونه ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩].

٤) وهم يشعرون ببلاغ القرآن وإنذاره، وهذا يزيدهم يقينًا بتوحيد الله ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

٥) وهم في ذلك يسيرون على الذي سار عليه من تلقي الوحي الرباني الذي لم ينله التحريف من الأقوام السابقة مثل قوم موسى عليه السلام، فقد بين الله لهم أنه أعظم مصادر الهدى والذكرى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (٥٣) هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [غافر: ٥٣-٥٤].

الصفة السادسة: التمييز بين الخبيث والطيب، وعدم الاغترار بكثرة الخبيب حال اصطحابهم تقوى الله في ذلك كله: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللهَ يَاأُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ١٠٠].

الصفة السابعة: الاعتبار من قصص السابقين، وهذا يعني أنهم يُعملون السنن الربانية في تعاملهم مع الحوادث الإنسانية: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]، ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٤٣].

الصفة الثامنة: يجعلون التدبر أهم الوظائف المقترنة بالتلاوة، والتدبر أساس التذكر: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

الصفة التاسعة: العبادة واستلذاذ قيام الليل والشعور بروحه في الحذر والرجاء: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

الصفة العاشرة: آخر موضع لذكر أولي الألباب حسب ترتيب المصحف يبصرنا بأنهم يجمعون بين الحذر من غضب الله في الدنيا قبل الآخرة، ويتقونه في فهمهم وأعمالهم في الحياة، ويجعلون الوحي مصدر الذكرى العظيمة لهم: ﴿أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللهَ يَاأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ [الطلاق: ١٠].

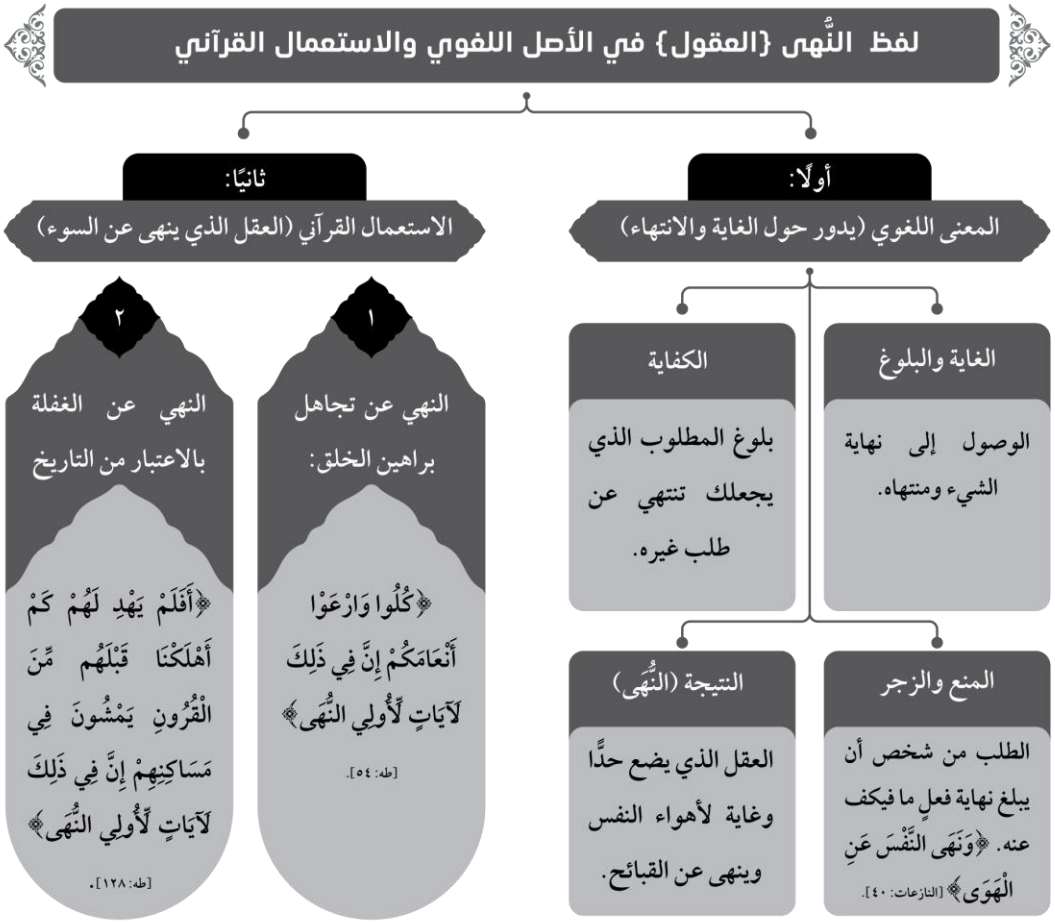

ثالثًا: لفظ النُّهى (العقول) في الأصل اللغوي والاستعمال القرآني:

كيف ظهر الجمال القرآني في اختيار هذا المصطلح {نُهى}؟

الجواب: لأن الإسلام ينمي العقل، فيزداد جمالًا وكمالًا حتى يصل إلى مرحلة النهي لصاحبه عن فعل ما يستقبح أو فعل ما يضر، فهي مرتبة أعلى للعقل من مجرد كونه عقلًا، ولذا يقرر الخليل رحمه الله أن هذه الكلمة اشتقت من «النَّهي، وهو خلافُ الأَمْر... والنِّهاية: الغاية، حيث ينتهي إليه الشَّيء، والإنهاء: إبلاغك الشّيء، وأنهيتُ إليه السَّهم، أي: أوصلته إليه[١].

والعَقْل سمي نُهية وجمعه النُّهى لأنه غاية كلِّ شَيْء، فيُنتَهى إِلَى مَا أَمَرَ بِهِ، وَلَا يُتَعَدَّى أمرُه، وعندي أنه يحتمل لأنه ينهى صاحبه عما لا يصلح، وَرجل مَنْهاةٌ: عَاقل حسن الرَّأْي[٢]، لذا جعل ابن فارس

(١) العين للخليل ٤/ ٩٣.

(٢) المحكم لابن سيده ٤/ ٣٨٦.

رحمه الله أصله يدل على غاية وبلوغ، ومنه أَنْهَيت إليه الخبر: بلَّغته إياه، ونِهاية كلِّ شيء: غايته، ونافة نَهِيَّة- كغنية-: بلغت غاية السِّمَن.

ومنه نَهيتُه عنه، وذلك لأمر يفعله، فإذا نهيته فانتهى عنك فتلك غاية ما كان وآخره. وفلان ناهيك من رجل كما يقال حسبك، وتأويله أنّه بجدّه وغنائه ينهاك عن تطلّب غيره[1].

وأنْشد سِيبَوَيْهٍ لزياد بن زيد العذري:

إِذا مَا انْتَهَى عِلْمِي تَنَاهَيْتُ عِنْدَه أطَالَ فَأمْلَى أوْ تَنَاهَى فَأقْصَرا[2]

قال الراغب رحمه الله: النهي: الزّجر عن الشيء. قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ [العلق: ٩-١٠]، وهو من حيث المعنى لا فرق بين أن يكون بالقول أو بغيره، وما كان بالقول فلا فرق بين أن يكون بلفظة: افعل، نحو: اجتنب كذا، أو بلفظة لا تفعل. ومن حيث اللفظ هو قولهم: لا تفعل كذا، فإذا قيل: لا تفعل كذا فنهي من حيث اللفظ والمعنى جميعًا. نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥][3].

فتتوزع دلالات مادة (ن هـ ي) على الدرجات الآتية، وكلها تعود إلى أصل الغاية والانتهاء:

الدرجة الأولى: الغاية والبلوغ والوصول إلى المنتهى، ومنه قولهم: ناقة **نَهِيَّة**، أي بلغت الغاية والمنتهى في السمن.

الدرجة الثانية: الكفاية وبلوغ المطلوب: ومنه قولهم: فلان **ناهيك** من رجل، أي أنه كافيك، فهو الغاية التي تطلبها، وبوجوده **تنتهي** عن طلب غيره.

الدرجة الثالثة: تتحول بعد ذلك إلى المنع والزجر عن فعل شيء بعد الوصول إلى الغاية؛ لأنك حين تنهى شخصًا عن فعل، فإنما تطلب منه أن يبلغ نهاية ذلك الفعل فيكف عنه كما في قوله تعالى: ﴿**وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى**﴾ [**النازعات: ٤٠**]، أي: قمعها وكفها.

الدرجة الرابعة: بعد ذلك يصبح المرء من أولي (النُّهى)، فيضع عقله حدًّا وغايةً لأهواء النفس وشرورها وشهواتها المحرمة، **وينهى** عن القبائح.

ولعل هذا هو السر الأجمل في ورود كلمة النُّهى مرتين في القرآن كلاهما في سورة طه:

---

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٥/ ٣٥٩.

(٢) الكتاب لسيبويه ٣/ ١٨٥

(٣) المفردات في غريب القرآن» (ص٨٢٦).

الأولى: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ﴾ [طه: ٥٤]:

فهذه الآية جاءت تكملة في تعريف فرعون بالله جل مجده؛ فإنه سأل عن الله عز وجل كأنه لا يعرفه، فقال: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَامُوسَى ﴾ [طه: ٤٩] فلما طار به موسى في خلق السموات والأرض، ورؤية التاريخ، والنظر في تدبير الله لغذاء الخلائق ختم بهذه الآية ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ﴾ [طه: ٥٤].

ليوصله بذلك إلى أن عقله إن كان كاملًا فيجب أن ينهاه عن تجاهل كل تلك البراهين، وأن يقف عن التشكيك في وجود الله ووحدانيته وعظمته.

الثانية: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾ [طه: ١٢٨]

وهذه الآية جاءت بعد قصة آدم عليه السلام؛ إذ بين الله عز وجل فيها أن آدم عليه السلام نسي عهد الله، فكانت النتيجة **﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ١٢١]، ولكنه استطاع أن ينمي عقله فورًا لتدارك الأمر، فتاب، واعترف، وكانت النتيجة مبهرة رائعة ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ [طه: ١٢٢].**

وحذر الله عز وجل ذرية آدم من نسيان آيات الله أو نسيان العودة إليه عند الوقوع، وذكر لهم شواهد التاريخ مجملة بعد أن فصل ثلاثة منها في السورة: فرعون، والسامري، وآدم عليه السلام، فالأولان لم يرجعا، وآدم تاب الله عليه وهدى، وهنا جاءت هذه الآية في موضعها العجيب

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾ [طه: ١٢٨]

لتبصرنا بأن العقل ينبغي أن ينمو لا ليقف عن فعل القبائح بل لينهى عنها.

رابعًا: لفظ الحِجْر (العقل) في الاستعمال القرآني:

وردت كلمة "حِجْر" مرة واحدة بمعنى العقل في قوله تعالى: **﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾** [الفجر: ٥] وتسمية العقل بذلك له جماله، إذ ترجع معانيه عند ابن فارس إلى المنْع والإحاطة على الشيء، وأكمل الدكتور جبل: والحفظ ومنع الاختراق لصلابة مسترسلة تَحول- كما يمنع الحاجرُ والجَدْرُ والمنارُ والسُّوْرُ ومَحْجَر العين. والحَجَر شديدُ التماسك لا يُخترق ومن هذا الأصل الواحد، الذي يجمع بين الصلابة المادية والمنع المعنوي اشتقت مفرداته

والعَقْل يسمَّى حِجْرًا لأنّه يمنع من إتيانِ ما لا ينبغى، لإمساكه وَمنعه وإحاطته بالتمييز،كما سُمِّى عَقْلًا تشبيها بالعِقال، ومن ذلك: الحَجَر: الجوهر الصلب المعروف، ومنه قوله جلّ وعزّ: {وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا} (الفُرقان: ٢٢) على إِنَّه من قَول الْمُشْركين للْمَلَائكَة يَوْم الْقِيَامَة، فالحِجْر والحُجْر لغتان: وهو الحرام، وكان الرجل يَلقَى غيره في الأشهر الحُرُم فيقول: حِجْرًا مَحجُورًا أيْ حَرامٌ مُحرَّم عليك في هذا الشْهر فلا يبدؤهُ بشَرٍّ، فيقول المشركون يومَ القيامة للملائكة: حِجْرًا محجُورًا، ويظُنّون أن ذلكَ ينفعُهم كفِعلِهم في الدنيا، وعن ابْن عَبَّاس: هَذَا كُلُّه من قَول الْمَلَائِكَة، قَالُوا للْمُشْرِكين: حِجْرًا مَحْجُورًا أَي حُجِرَتْ عَلَيْكُم الْبُشْرَى فَلَا تُبَشَّرون بِخَير.

وَيَقُولُونَ حِجْرًا. تَم الْكَلَام، قَالَ الْحسن: هَذَا من قَول الْمُجْرمين، فَقَالَ الله: مَحْجُورًا عَلَيْهِم أَن يُعَاذُوا وَأَن يُجارُوا كَمَا كَانُوا يُعَاذُون فِي الدُّنْيَا ويُجارُون، فحجر الله ذَلِك عَلَيْهِم يَوْم الْقِيَامَة.

قال أبو حاتم السجستاني تعليقًا: وأَحْرَى أَن يكون قولُه: (حِجْرًا مَحْجُورًا) كلَاما وَاحِدًا لَا كَلَامَيْن مَعَ إِضْمَار كَلَام لَا دَلِيل عَلَيْهِ [1].

(١) ينظر: العين» (٣/ ٧٣-٧٦)، تهذيب اللغة (١٥/ ٢٤٢-٢٤٤)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٢/ ٦٢٣- ٦٢٤)، معجم مقاييس اللغة (٢/ ١٣٨- ١٣٩)، المحكم والمحيط الأعظم (١٠/ ٣٦٦- ٣٧١)، المفردات في غريب القرآن (ص٢٢٠- ٢٢١)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (١/ ٣٨١-٣٨٢).

فخلاصة الأمر أن القرآن الكريم يهدف إلى تنمية العقول وتزكيتها وذلك بالأمور الآتية:

١) **بالتلاوة الدائمة للقرآن العظيم** " ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٢].

٢) **بلفت نظره إلى الآيات الكونية المادية المشاهدة**، فالعاقل لا بد أن يؤمن والشهواني هو الذي يرفض اتباع عقله، فيرفض الإيمان ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: ٣-٥]، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٤].

٣) **بالنظر في العلاقات الإنسانية ليدرك بطلان الشرك:** ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨].

٤) **بأن يحرره من التقليد والتعصب للأسلاف والسقوط في هاوية الآبائية** مع ظهور السفه فيها بأن يشده إلى مقدار الضلال في الأجيال السابقة: " ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٢].

٥) **بلفت النظر إلى التاريخ، والآثار الباقية للأمم السابقة:** ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧-١٣٨]، ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٥].

٦) **بأن يقارن بين خصائص المتقابلات كأن يميز بين متاع الدنيا الزائل وثواب الله الباقي:** ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص: ٦٠].

٧) **بأن يتفكر في أصل الإنسان ومراحل خلقه ليدرك حكمة خالقه:** ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر: ٦٧].

٨) **بلفت نظره إلى التحولات في أطوار الخلق ليستدل على ملك الخالق ووحدانيته في ألوهيته، وقدرته على كل شيء:** ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٨].

٩) **اللغة العربية تنمي العقل ولذلك نزل القرآن بها:** ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣].

المطلب الثاني

وظائف العقل ومجالات عمله في ضوء هدايات الوحي

حافظت الشريعة الإسلامية على العقل، وجعلت ذلك إحدى الكليات الخمس التي جاءت للمحافظة عليها، ومن أجل هذا حرمت كل ما يذهب العقل أو يفسده كالخمر، قال العز بن عبد السلام: «وَأَمَّا حَدُّ الْخَمْرِ فَزَاجِرٌ عَنْ شُرْبِ كَثِيرِه الْمُفْسِدِ لِلْعَقْلِ، الَّذِي هُوَ من أَشْرَفِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَاَللهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ فِي شَيْءٍ حَقِيرٍ، فَمَا الظَّنُّ بِإِفْسَادِ الْعَقْلِ الَّذِي هُوَ أَخْطَرُ مِنْ كُلِّ خَطِيرٍ؟! وَلِذَلِكَ أَوْجَبَ الْحَدَّ فِي شُرْبِ الْيَسِيرِ مِنْهُ لِكَوْنِهِ وَسِيلَةً إلَى شُرْبِ الْكَثِيرِ»[(١)].

من أعظم وظائف العقل ما يأتي:

١) التفكر.

٢) الفقه.

٣) العلم.

٤) الاعتبار.

٥) التذكر والادكار.

٦) النظر.

٧) التدبر.

٨) إيقاظ بصيرة أولي الأبصار.

وسنكتفي بذكر التفكر ودلالاته السياقية في كتاب الله عز وجل، فهو يمهد للوظائف الأخرى وينبئ عنها، فقد وردت كلمة "يتفكرون" ومشتقاتها في القرآن (١٨ مرة)، كالآتي:

١) **الموضع الأول**: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩) فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٩- ٢٢٠].

يبين ابن عاشور رحمه الله البصيرة في ذكر التفكر في الدنيا والآخرة وأن التفكر فيهما ليحصل للأمة تفكر وعلم في أمور الدنيا وأمور الآخرة[(٢)].

---

(١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام ١/ ٢٩١.

(٢) التحرير والتنوير ٢/ ٣٥٣.

ويذكر لنا سلفنا العظماء من المفسرين أوجهًا في هذا التفكر العقلي، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: يعني في زوال الدنيا وفنائها وإقبال الآخرة وبقائها"[١].

وقال الحسن رحمه الله: "هي والله لمن تفكر فيها ليعلم أن الدنيا دار بلاء ثم دار فناء، وليعلم أن دار الآخرة، دار جزاء ثم دار بقاء".

وهنا يأتي قول قتادة رحمه الله: لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة فتعرفوا فضل الآخرة على الدنيا[٢].

ويظهر الزمخشري رحمه الله براعة عظيمة في معنى (تتفكرون)، فيقول عن صلتها بقوله تعالى عقبها {في الدنيا والآخرة}: "إمَّا أن يتعلق بتتفكرون، فيكون المعنى: لعلكم تتفكرون فيما يتعلق بالدارين فتأخذون بما هو أصلح لكم كما بينت لكم أنَّ العفو أصلح من الجهد في النفقة، وتتفكرون في الدارين فتؤثرون أبقاهما وأكثرهما منافع. ويجوز أن يكون إشارة إلى قوله: (وَإِثْمُهُما أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما) لتتفكروا في عقاب الإثم في الآخرة والنفع في الدنيا. حتى لا تختاروا النفع العاجل على النجاة من العقاب العظيم. وإمّا أن يتعلق بـ(يُبَيِّن) على معنى: يبين لكم الآيات في أمر الدارين وفيما يتعلق بهما لعلكم تتفكرون"[٣].

ويلفتنا سيد قطب رحمه الله **إلى أن قوله تعالى: {لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩) فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ} يضبط موازين تصورنا وسلوكنا تجاه الدنيا والآخرة** فيقول: "هذا البيان لاستجاشة التفكر والتدبّر في أمر الدنيا والآخرة؛ فالتفكر في الدنيا وحدها لا يمنح صورة كاملة عن الوجود الإنساني، ولا عن القيم الحقيقية للأشياء. فالدنيا شطر الحياة الأدنى، وبناء الحياة على معيار الدنيا فقط يخل بالموازين، ولا ينشئ تصورًا صحيحًا أو سلوكًا صحيحًا"[٤].

٢) **الموضع الثاني**: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

---

(١) تفسير الطبري ٤/ ٣٤٨.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٢/ ٢٩٤.

(٣) الكشاف (١/ ٢٦٣).

(٤) في ظلال القرآن (١/ ٢٣١).

استوقفت هذه الآية الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأثار معناها في مجلس تدبر وتفهم جمع له نفرًا من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فروى عبيدُ بن عُمَير قال: «صحيح البخاري» (٦/ ٥٠):

«قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه يَوْمًا لِأَصْحَابِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: فِيمَ تَرَوْنَ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ: {أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ}؟ قَالُوا: اللهُ أَعْلَمُ. فَغَضِبَ عُمَرُ، فَقَالَ: قُولُوا: نَعْلَمُ أَوْ لَا نَعْلَمُ. فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فِي نَفْسِي مِنْهَا شَيْءٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَ عُمَرُ: يَا ابْنَ أَخِي، قُلْ وَلَا تَحْقِرْ نَفْسَكَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ضُرِبَتْ مَثَلًا لِعَمَلٍ. قَالَ عُمَرُ: أَيُّ عَمَلٍ؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لِعَمَلٍ. قَالَ عُمَرُ: لِرَجُلٍ غَنِيٍّ يَعْمَلُ بِطَاعَةِ اللهِ عز وجل، ثُمَّ بَعَثَ اللهُ لَهُ الشَّيْطَانَ، فَعَمِلَ بِالْمَعَاصِي حَتَّى أَغْرَقَ أَعْمَالَهُ»[1].

ويُجَسِّدُ ابن كثير تفسير هذه الآية ويعالج معناها بعمقٍ وقوةٍ حينما يقول معلقًا على هذا الحديث: "وفي هذا الحديث كفاية في تفسير هذه الآية، وتبيين ما فيها من المثل بعمل من أحسن العمل أولًا ثم بعد ذلك انعكس سَيْرُهُ، فبدَّل الحسنات بالسيئات، عياذًا بالله من ذلك، فأبطل بعمله الثاني ما أسلفه فيما تقدم من الصالح.. ولهذا قال تعالى: {كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ} أي: تعتبرون وتفهمون الأمثال والمعاني، وتنزلونها على المراد منها "[2].

فالتفكر هنا يستهدف إيقاظ حاسة الحذر من عواقب الانتكاس بعد الاستقامة، والتنبه للمصير المأساوي الذي يخسر فيه الإنسان كل شيء في لحظة هو فيها أشدُّ ما يكون فقرًا إلى ما قدمت يداه.

ويقول البقاعي رحمه الله في كلام بديع مشيرًا إلى أهمية التفكر وضرورته في إصلاح بدايات الأعمال ونهاياتها: "{لعلكم تتفكرون} أي ليكون حالكم حال من يرجى أن يحمل نفسه على الفكر، ومن يكون كذلك ينتفع بفكره. وقال الحرالي: فتبنون الأمور على تثبيت، لا خير في عبادة إلا بتفكر، كما أن الباني لا بد أن يفكر في بنائه، كما قال الحكيم: أول الفكرة آخر العمل وأول العمل آخر الفكرة، كذلك من حق أعمال الدين أن لا تقع إلا بفكرة في إصلاح أوائلها السابقة وأواخرها اللاحقة"[3].

---

(١) البخاري، حديث رقم (٤٥٣٨)، كتاب التفسير، بَابُ قَوْلِهِ: {أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ} إِلَى قَوْلِهِ: {تَتَفَكَّرُونَ} ثم رواه البخاري، عن الحسن بن محمد الزعفراني، عن حجاج بن محمد الأعور، عن ابن جريج، فذكره. وهو من أفراد البخاري، رحمه الله.

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٦٩٦).

(٣) نظم الدرر (٤/ ٨٨).

٣) **الموضع الثالث**: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

سبق هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، ثم جاء عقبها {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ} وفي إشارة عجيبة من أبي السعود إلى موقع قوله سبحانه بعد ذلك: {**وَيَتَفَكَّرُونَ** فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} مما قبلها يقول رحمه الله: "هو بيانٌ لتفكرهم في أفعاله سبحانه إثرَ بيانِ تفكرِهم في ذاته تعالى على الإطلاق وأشار إلى نتيجته التي يؤدِّي إليها من معرفة أحوالِ المعادِ حسبما نطقت به ألسنةُ الرسلِ وآياتُ الكتبِ، فكما أنها آياتٌ تشريعيةٌ هاديةٌ للخلق إلى معرفته تعالى ووجوبِ طاعتِه كذلك المخلوقاتُ آياتٌ تكوينيةٌ مرشدةٌ لهم إلى ذلك، فالأُولى منبِّهاتٌ لهم على الثانية ودواعٍ إلى الاستشهاد بها"[(١)].

فأبو السعود رحمه الله يقرر بطريقته الفذة ذكر معنيين رائعين: الأول: أن التفكر في آيات الكون وآيات الوحي: سبيلان متكاملان لمعرفة الله، والثاني: أن التفكر في الخلق بوابة الإيمان بالمعاد.

وإن شئت أن تعرف للتفكر قدره، فانظر كيف احتفى به الألوسيُّ رحمه الله وأنزله من سماء المعرفة أرفع المنازل حينما علق على قوله سبحانه {وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} فقال: "ولشرافة هذه الثمرة الحاصلة من التفكر مع كونه من الأعمال المخصوصة بالقلب البعيدة عن مظان الرياء كان من أفضل العبادات"[(٢)].

٤) **الموضع الرابع**: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠].

يستخلصُ الطبري رحمه الله من هذه الآية أن غاية التفكر هي إدراك فساد معتقداتهم الحالية، و أن الإيمان هو النتيجة الحتمية للتفكر الصحيح وهو السبيل الوحيد للفوز فيقول: "أفلا تتفكرون"، يقول لهؤلاء الذين كذبوا بآيات الله: أفلا تتفكرون فيما أحتجَّ عليكم به، أيها القوم، من هذه الحجج، فتعلموا صحة ما أقول وأدعوكم إليه، من فساد ما أنتم عليه مقيمون من إشراك الأوثان والأنداد بالله ربِّكم،

---

(١) تفسير أبي السعود (٢/ ١٣).

(٢) تفسير الألوسي (٣/ ٣٦٦).

وتكذيبكم إياي مع ظهور حجج صدقي لأعينكم، فتدعوا ما أنتم عليه من الكفر مقيمون، إلى ما أدعوكم إليه من الإيمان الذي به تفوزون"[١].

ويبدع رشيد رضا رحمه الله عندما يجعل التفكير المستقل حجة على دحض التقليد الأعمى فيقول: "ثم قال عز وجل: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠] أي قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين: هل يستوي أعمى البصيرة الضال عن الصراط المستقيم.. وذو البصيرة المهتدي إليه، المستقيم في سيره عليه، على بينة وبرهان.. ولذلك قال مقرعًا لهم: (أفلا تتفكرون) أي في ذلك، فتميزوا بين ضلالة الشرك وهداية الإسلام، وتفرقوا بين صفات الرب الإله وصفات الإنسان، وتعقلوا حجة الرسالة مما في هذه الأرض من أنواع الهداية والعرفان، وأخبار الغيب التي لم يؤتها إنس ولا جان. هذه الآية حجة من حجج الله تعالى للمستقلين في هداية الدين، على المقلدين فيه لآبائهم ومشايخهم الجاهلين"[٢]، كما أن رشيد رضا رحمه الله لم يترك الدعوة إلى التفكير عامة، بل حدد لها المسارات التي يجب أن يعمل فيها العقل للوصول إلى الحقيقة. ويقرر بالنظر في الآية أن القرآن دعاهم إلى التفكر في عدة أمور:

- التمييز بين المناهج: "فتميزوا بين ضلالة الشرك وهداية الإسلام".
- التمييز في الصفات: "وتفرقوا بين صفات الرب الإله وصفات الإنسان".
- التمييز في الأدلة: "وتعقلوا حجة الرسالة مما في هذه الأرض من أنواع الهداية والعرفان".
- التمييز في مصادر العلم: "وأخبار الغيب التي لم يؤتها إنس ولا جان"..

٥) الموضع الخامس: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

يقرر ابن عاشور رحمه الله عن طريق هذه الآية أن التفكير أداة أساسية للهداية والاتعاظ، ويبرز الدور المحوري للتفكير والعقل في فَهْم الرسائل الإلهية وتحقيق الهداية فيقول: "﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾أي اقصص هذه القصة وغيرها، وهذا تذييل للقصة الممثل بها يشملها وغيرها من القصص التي في القرآن؛ فإن في القصص تفكرًا وموعظة، فيرجى منه تفكرهم وموعظتهم، لأن للأمثال واستحضار

(١) تفسير الطبري (١١/ ٣٧٢).

(٢)تفسير المنار (٧/ ٣٥٦).

النظائر شأنًا عظيمًا في اهتداء النفوس بها، وتقريب الأحوال الخفية إلى النفوس الذاهلة أو المتغافلة، لما في التنظير بالقصة المخصوصة من تذكر مشاهدة الحالة بالحواس، بخلاف التذكير المجرد عن التنظير بالشيء المحسوس"[١].

فالغاية من سرد القصص في القرآن ليست مجرد التسلية، بل هي دعوة صريحة للتفكر والتدبر، وهو ما يعلي من شأن العقل كأداة أساسية للاعتبار والموعظة، وهذا يعني أن العقل هو المتلقي والمحلل لهذه القصص، وأن التفكر هو العملية الذهنية التي تستخلص منها العبر والدروس. فالقصص القرآنية ليست غاية في حد ذاتها، بل هي وسيلة لإثارة العقل وتحفيزه على التأمل.

كما يشير ابن عاشور رحمه الله إلى: "أن للأمثال واستحضار النظائر شأنًا عظيمًا في اهتداء النفوس". وهذا يؤكد على قيمة التفكير القياسي والتحليلي الذي يقوم به العقل. فالعقل هو الذي يربط بين القصة المسرودة والحالة الواقعية، ويستخلص أوجه الشبه والاختلاف، مما يسهل فَهْم المعاني العميقة والدروس الخفية التي قد لا تدركها النفوس "الذاهلة أو المتغافلة" بالتذكير المجرد.

ويقرر رشيد رضا رحمه الله بطريقته أن هذا التفكر، بدوره، يدفعهم للبحث عن مخرج من سوء حالهم، مما يعني أن التفكر هو الخطوة الأولى والأساسية نحو الهداية وإدراك الحق، ثم يعود ليؤكد على ضرورة النظر في آيات الله "بعين العقل والبصيرة، لا بعين الهوى والعداوة". وهذا يضع العقل في مكانة الحَكَم والفيصل لفهم الآيات فهمًا صحيحًا ومجردًا من الأهواء الشخصية التي تعمي عن الحقيقة، ويختتم رضا كلامه بالإشارة إلى أن التفكر هو "مبدأ العلم وطريق الحق"[٢].

وبهذا، يرفع من شأن التفكر ليجعله ليس فقط أداة للنجاة الشخصية، بل المصدر الذي تتولد منه المعرفة الحقيقية والطريق الوحيد للوصول إلى الحق.

٦) **الموضع** السادس: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٤].

يبرز سيد قطب رحمه الله بأسلوبه الفذ في تفسير هذه الآية التفكر كعملية إنقاذ للعقل فيقول: "إن القرآن يهزهم من غفوتهم، ويوقظهم من غفلتهم، ويستنقذ- من تحت الركام- فطرتهم وعقولهم ومشاعرهم.. إنه يخاطب كينونتهم البشرية كلها، بكل ما فيها من أجهزة الاستقبال والاستجابة.. إنه لا

(١)التحرير والتنوير (٩/ ١٧٩).

(٢)تفسير المنار (٩/ ٣٤٢).

يوجه إليهم جدلًا ذهنيًا باردًا إنما هو يستنقذ كينونتهم كلها وينفضها من أعماقها: «أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا؟ ما بِصاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ، إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ»"(١).

فالتفكر هنا ليس ترفًا فكريًّا، بل هو عملية إحياء وإنقاذ للعقل ليعود إلى أداء وظيفته الأساسية، كما يشدد سيد رحمه الله على أن القرآن لا يوجِّه "جدلًا ذهنيًا باردًا" يقتصر على العقل المجرد. بدلًا من ذلك، هو يخاطب "الكينونة البشرية كلها" بعقلها وفطرتها ومشاعرها. وهذا يعني أن التعقل المطلوب قرآنيًّا هو تعقل متكامل، يتفاعل فيه العقل مع القلب والمشاعر للوصول إلى استجابة كاملة، وليس مجرد اقتناع ذهني منفصل.

ويظهر السعدي رحمه الله مكانة التعقل والتفكر كأدوات أساسية وحاسمة للتثبت من صدق الرسالة والرسول، وذلك من خلال تحويل التفكر إلى منهج تحقيق عملي، حيث يفسر السعدي "التفكر" بأنه "إعمال الأفكار"، أي أنه ليس مجرد تأمل عابر، بل هو عملية عقلية منظمة ونشطة فيقول: "{أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ} محمد صلى الله عليه وسلم {مِنْ جِنَّةٍ} أي: أَوَ لَمْ يُعْمِلُوا أفكارهم، وينظروا: هل في صاحبهم الذي يعرفونه ولا يخفى عليهم من حاله شيء، هل هو مجنون؟ فلينظروا في أخلاقه وهديه، ودَلِّه وصفاته، وينظروا في ما دعا إليه، فلا يجدون فيه من الصفات إلا أكملها، ولا من الأخلاق إلا أتمها، ولا من العقل والرأي إلا ما فاق به العالمين، ولا يدعو إلا لكل خير، ولا ينهى إلا عن كل شر. أفبهذا يا أولي الألباب من جِنَّة؟! أم هو الإمام العظيم والناصح المبين، والماجد الكريم، والرءوف الرحيم؟"(٢).

٧) الموضع السابع: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

يبرز محمد رشيد رضا رحمه الله أهمية التفكر والاعتبار لمسلمي العصر الحاضر من خلال نقده اللاذع لواقعهم وتقديمه للتفكر كحل جذري لمشكلاتهم فيقول: "﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ لقوم يستعملون عقولهم وأفكارهم فيها، ويزنون أعمالهم بموازينها، فيتبينون ربحها وخسرانها. والعبرة لمسلمي عصرنا في هذه الآيات البينات المنزلة وأمثالها، أنه لم يبق لهم حظ منها إلا

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٤٠٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص: ٣١٠).

ترتيلها بالنغمات في بعض المواسم والمآتم، ولا يخطر لهم ببال أنه يجب عليهم التفكر للاهتداء بها، ولو تفكروا لاهتدوا، وإذا لعلموا أن كل ما يشكو منه البشر من الشقاء بالأمراض الاجتماعية والروحية، والرذائل النفسية، والعداوات القومية، والحروب الدولية، فإنما سببه التنافس في متاع هذه الحياة الدنيا،..."[(١)]، و يوظف رشيد رضا رحمه الله التشخيص النقدي للحال المعاصر عندما يقدم مقارنة حادة ومؤلمة بين ما يجب أن يكون عليه حال المسلم مع القرآن وما هو كائن. فبدلًا من أن يكون القرآن مادة للتفكر وإعمال العقل لتمييز الربح من الخسارة، تحول في نظر الكثيرين إلى مجرد تراتيل تُقرأ في المناسبات ("ترتيلها بالنغمات في بعض المواسم والمآتم"). وبهذا التشخيص، يوضح أن غياب التفكر هو المرض الأساسي الذي يعاني منه مسلمو العصر.

ويبدع البقاعي رحمه الله عندما ينتزع من صيغة الجملة الفعلية {يتفكرون} معنى التجديد الفكري وديمومته فيقول: "أي يجددون الفكر على وجه الاستمرار والمبالغة"[(٢)].

٨) الموضع الثامن: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣].

يبرز الطبري رحمه الله مكانة التفكر فجعله أداة محورية للمعرفة والإيمان من خلال توضيح وظيفته ونتائجه المباشرة فيقول عند تفسير هذه الآية: "إن فيما وصفت وذكرت من عجائب خلق الله وعظيم قدرته التي خلق بها هذه الأشياء، لَدلالات وحُججًا وعظات، [لقوم يتفكرون] فيها، فيستدلون ويعتبرون بها، فيعلمون أن العبادة لا تصلح ولا تجوز إلا لمن خلقها ودبَّرها دون غيره من الآلهة والأصنام التي لا تقدر على ضر ولا نفع ولا لشيء غيرها"[(٣)].

فالتفكر عند الطبري رحمه الله جسر بين الخلق والحقيقة، وذلك حينما يقرر أن التفكر ليس مجرد تأمل عشوائي، بل هو العملية العقلية التي تحوِّل مشاهدة "عجائب خلق الله" من مجرد رؤية إلى استنتاج "دلالات وحجج وعظات". فالتفكر هو الجسر الذي يعبر به الإنسان من العالم المادي المحسوس إلى عالم الحقائق الإيمانية الكبرى.

---

(١)تفسير المنار (١١/ ٢٨٥).

(٢)نظم الدرر (٩/ ١٠٣).

(٣)تفسير الطبري (١٦/ ٣٣٠).

ويقرر السعدي رحمه الله أهمية التفكر عند تفسير هذه الآية من خلال جعله الأداة العقلية الأساسية التي تنقل الإنسان من مجرد المشاهدة إلى اليقين والمعرفة فيقول: "{لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} ينظرون فيها نَظَرَ اعتبار دالة على أن الذي خلقها ودبرها وصرفها، هو الله الذي لا إله إلا هو، ولا معبود سواه، وأنه عالم الغيب والشهادة، الرحمن الرحيم، وأنه القادر على كل شيء، الحكيم في كل شيء المحمود على ما خلقه وأمر به تبارك وتعالى"(١)، فيوضح السعدي رحمه الله أن نتيجة "نظر الاعتبار" هذا هي الوصول مباشرة إلى جوهر الإيمان. فمن خلال التفكر في الخلق، يستنتج العقل أن الخالق والمدبر هو الله وحده، وأنه هو المعبود الحق، وأنه متصف بصفات الكمال كالعلم والرحمة والقدرة والحكمة. فالتفكر هنا هو الطريق المباشر لمعرفة الله بأسمائه وصفاته.

٩) **الموضع التاسع**: ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١١].

استدل الرازي رحمه الله بالآية على أهمية التفكر بطريقة فلسفية ومنطقية عميقة، حيث عدَّ التفكر عملية عقلية ضرورية لمواجهة الشكوك وإكمال الحجة الدامغة فقال: "إنه تعالى ختم هذه الآية بقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، والسبب فيه أنه تعالى ذَكَرَ أنه: أنزل من السماء ماء... ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب.

ولقائل أن يقول: لا نسلم أنه تعالى هو الذي أنبتها ولِمَ لا يجوز أن يقال: إن هذه الأشياء إنما حدثت وتولدت بسبب تعاقب الفصول الأربعة وتأثيرات الشمس والقمر والكواكب؟! وإذا عرفت هذا السؤال فما لم يقم الدليل على فساد هذا الاحتمال لا يكون هذا الدليل تامًّا وافيًا بإفادة هذا المطلوب، بل يكون مقام الفكر والتأمل باقيًا، فلهذا السبب ختم هذه الآية بقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾"(٢).

فالرازي رحمه الله يوضح أن الدليل الذي تقدمه الآية (إنبات الزرع) لا يصبح دليلًا "تامًّا وافيًا" بإثبات المطلوب (وهو أن الله هو الفاعل)، إلا بعد إبطال الاحتمال الآخر (وهو أنه من فعل الطبيعة فقط). والمهمة المنوطة بإبطال هذا الاحتمال هي مهمة "الفكر والتأمل".

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص: ٤١٢).

(٢) مفاتيح الغيب (١٩/ ١٨١).

يقرر محمد أبو زهرة رحمه الله أهمية التفكر وإعمال العقل من خلال تحديد طبيعة هذا التفكر وغايته وثمرته النهائية، فيقول: "ختم الله تعالى الآية بقوله: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)، أي إن في ذلك الخلق العظيم الدقيق الحكيم لآيات دالات بينات على عظيم الخلق، وإحكام الأسباب التي سَيَّرها بأمره، وهو العليم الخبير، سبحانه وتعالى، (لِقَوْم يَتَفَكَرُونَ)، أي لأناس متجمعين يتفكرون تفكر المتدبرين في أحكام صنيعه، وكريم نعمه، وعظم المن في فضله، سبحانه وتعالى"(١)، فيربط أبو زهرة التفكر بإدراك حكمة الخلق، حينما يشير إلى أن النص يوجه العقل إلى التفكر في "إحكام صنيعه" و"إحكام الأسباب" التي سَيَّرها الله. فغاية التفكر هي الانتقال من رؤية الخلق إلى فَهْم وإدراك ما وراءه من عظمة ودقة وحكمة ونظام متقن، مما يثبت وجود خالق عليم خبير.

١٠) الموضع العاشر: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

يؤكد سيد قطب رحمه الله أن الدعوة إلى التفكر والتدبر ليست أمرًا عارضًا، بل هي مبدأ أساسي ومستمر في القرآن فيقول: "وقوله «وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» في آيات الله وآيات القرآن، فإنه يدعو دائمًا إلى التفكر والتدبر، وإلى يقظة الفكر والشعور"(٢)، وهذا يرفع من شأن التفكر ليجعله أمرًا ضروريًّا في علاقة المسلم بالقرآن والكون من حوله.

ويؤكد جمال الدين القاسمي رحمه الله على أهمية التفكر في الفوز وتجنب مصير الأولين من خلال تقديمه كأداة عملية ذات مسارين متكاملين هما: مسار الفوز والنجاة (الغاية الإيجابية)، مسار الحذر والوقاية (الغاية السلبية) فيقول: "وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ أي ينظرون لأنفسهم فيهتدون فيفوزون بالنجاة في الدارين. أو يتأملون ما فيه من العبر فيحترزون عما أصاب الأولين"(٣).

١١) الموضع الحادي عشر: ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٩].

---

(١) زهرة التفاسير (٨/ ٤١٤٠).

(٢) تفسير القاسمي = محاسن التأويل (٦/ ٣٧٥).

(٣) في ظلال القرآن (٤/ ٢١٧٣).

التفكر عند البقاعي رحمه الله يُعدُّ عملية عقلية راقية ومتخصصة، لا يقوى عليها إلا أصحاب العقول القوية، وذلك للكشف عن أدق الدلائل وأعمقها فيقول: "{لقوم يتفكرون} أي في اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة واللطائف الخفية بالبيوت المسدسة، والاهتداء إلى تلك الاجزاء اللطيفة من أطراف الأشجار والأوراق – وغير ذلك من الغرائب حيث ناطه بالفكر المبالغ فيه من الأقوياء، تأكيدًا لفخامته وتعظيمًا لدقته وغرابته في دلالته على تمام العلم وكمال القدرة"(١)، فكما يلاحظ أن البقاعي رحمه الله لا يصف التفكر بأنه تأمل عابر، بل يصفه بأنه فكر "مبالغ فيه". وهذا الوصف يوحي بالعمق والتركيز الشديد والجهد العقلي الكبير المطلوب. فالتفكر هنا ليس للجميع، بل هو للأقوياء فكريًّا وروحيًّا، مما يجعل عملية التفكر نفسها عملًا للنخبة من أولي الألباب.

ويُظهر الشعراوي رحمه الله أهمية التفكير من خلال تعريفه كعملية حيوية منتجة، وربطه بشكل مباشر بالارتقاء الحضاري والنمو الشخصي، واعتباره استجابة لأمر إلهي فيقول: "التفكُّر: أنْ تُفكِّر فيما أنت بصدده لتستنبطَ منه شيئًا لستَ بصدده، وبذلك تُثري المعلومات؛ لأن المعلومات إذا لم تتلاقح، إذا لم يحدث فيها توالد تقف وتتجمّد، ويُصاب الإنسان بالجمود الطموحي، وإذا أصيب الإنسان بهذا الجمود توقَّف الارتقاء؛ لأن الارتقاءات التي نراها في الكون هي نتيجة التفكُّر وإعمال العقل. لذلك فالحق سبحانه يُنبِّهنا حينما نمرُّ على ظاهرة من ظواهر الكون، ألا نمر عليها غافلين مُعرضين، بل نفكر فيها ونأخذها بعين الاعتبار"(٢)، فالشعراوي رحمه الله يعرف التفكر بأنه ليس مجرد استعراض للمعلومات، بل هو عملية نشطة تهدف إلى "استنباط شيء لست بصدده". إنه يرى العقل كأداة للتوليد والإثراء، حيث تتلاقح الأفكار لتنتج معارف جديدة، مما يجعل التفكير محركًا لتنمية الوعي وليس مجرد مخزن للمعلومات.

١٢) الموضع الثاني عشر: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ [الروم: ٨].

ينبه ابن كثير رحمه الله على عظمة التفكر وأنه منهج إلهي متكامل يبدأ من الذات وينتهي بإثبات أركان الإيمان الكبرى فيقول: "يقول تعالى منبهًا على التفكر في مخلوقاته، الدالة على وجوده وانفراده بخلقها،

(١)نظم الدرر (١١/ ١٩٩).

(٢)تفسير الشعراوي (١٣/ ٨٠٥٨).

وأنه لا إله غيره ولا رب سواه، فقال: { أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ } يعني به: النظر والتدبر والتأمل لخلق الله الأشياء من العالم العلوي والسفلي، وما بينهما من المخلوقات المتنوعة، والأجناس المختلفة، فيعلموا أنها ما خلقت سُدًى ولا باطلا بل بالحق، وأنها مؤجلة إلى أجل مسمى، وهو يوم القيامة"(١)، فلا يكتفي ابن كثير رحمه الله بكلمة "تفكر"، بل يفسرها بأنها تشمل "النظر والتدبر والتأمل".

وهذا التعدد في الألفاظ يدل على أن التفكر المطلوب ليس نظرة سطحية، بل هو عملية عقلية متكاملة وعميقة تتطلب فحصًا وتأملًا واستنتاجًا، مما يعطي لهذه العملية العقلية قدرًا كبيرًا من الأهمية.

ويناقش السعدي رحمه الله أهمية التفكر في تفسير هذه الآية، فيعده منهجًا عقليًّا متدرجًا، يبدأ من أقرب دليل (النفس) ليصل إلى إثبات أعظم الحقائق الإيمانية (البعث والجزاء) فيقول: "أي: أفلم يتفكر هؤلاء المكذبون لرسل الله ولقائه { فِي أَنْفُسِهِمْ } فإن في أنفسهم آياتٍ يعرفون بها أن الذي أوجدهم من العدم سيعيدهم بعد ذلك، وأن الذي نقلهم أطوارًا من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى آدمي قد نفخ فيه الروح إلى طفل إلى شاب إلى شيخ إلى هرم، غير لائق أن يتركهم سدى مهملين لا ينهون ولا يؤمرون ولا يثابون ولا يعاقبون. {مَا خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلا بِالْحَقِّ} أي ليبلوكم أيكم أحسن عملا. { وَأَجَلٍ مُسَمًّى } أي: مؤقت بقاؤهما إلى أجل تنقضي به الدنيا وتجيء به القيامة وتبدل الأرض غير الأرض والسماوات"(٢)، فالسعدي يوجه المكذبين إلى نقطة البداية المنطقية والأكثر وضوحًا وهي أنفسهم {فِي أَنْفُسِهِمْ}. ففي النفس البشرية "آيات" أو دلائل كافية، مما يجعل التفكر عملية متاحة للجميع لا تتطلب بحثًا خارجيًا معقدًا، بل تبدأ من تأمل الذات.

١٣) **الموضع** الثالث عشر: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

يوقفنا الطبري رحمه الله على أهمية التفكير في إقامة الحجة باعتباره العملية العقلية التي تحول الدليل المشاهد إلى يقين راسخ بصفات الله عز وجل فيقول: "يقول تعالى ذكره: إن في فعله ذلك لعبرًا وعظات لقوم يتذكرون في حجج الله وأدلته، فيعلمون أنه الإله الذي لا يُعجزه شيء أراده، ولا يتعذّر عليه فعل

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٠٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص: ٦٣٧)

شيء شاءه"[١]، فيوضح الطبري رحمه الله أن فعل الله (الآية الكونية) لا يصبح "عبرة وعظة" بشكل تلقائي، بل يصبح كذلك "لقوم يتذكرون". فالتفكير أو التذكر هو الأداة التي تستخرج الدرس والحجة من الحدث، وتحول المشهد الصامت إلى دليل ناطق.

ويعلل القرطبي رحمه الله توجيه التفكر إلى الأنفس وإلى خلق السماوات والأرض بأنهما يمثلان أكبر دليلين متكاملين، (داخلي وخارجي) يقودان العقل بشكل مباشر إلى إدراك الحقيقة الأساسية للخلق فيقول: "إنما أمروا أن يستعملوا التفكر في خلق السماوات والأرض وأنفسهم، حتى يعلموا أن الله لم يخلق السماوات وغيرها إلا بالحق"[٢]، فتمَّ توجيه التفكر إلى هذين المجالين لأنهما يقدمان حجة متكاملة لا يمكن تجاهلها؛ فالإنسان يرى الحكمة والدقة في نفسه (أصغر نطاق)، ويراها في الكون من حوله (أوسع نطاق)، وكلا التفكرين يقود إلى نفس النتيجة الحتمية: أن الخلق قائم على الحق، وهذا هو المدخل الأساسي لمعرفة الله وغاية الوجود.

١٤) **الموضع** الرابع عشر: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

يبدع سيد قطب رحمه الله عند تفسير هذه الآية في إبراز عظمة التفكر والتجرد للحق من خلال تحويله من مجرد عملية عقلية إلى منهج روحي وحركي متكامل، مستخدمًا لغة شعرية قوية وصورًا بلاغية عميقة فيقول: "إنها دعوة إلى القيام لله. بعيدًا عن الهوى. بعيدًا عن المصلحة. بعيدًا عن ملابسات الأرض. بعيدًا عن الهواتف والدوافع التي تشتجر في القلب، فتبعد به عن الله. بعيدًا عن التأثر بالتيارات السائدة في البيئة. والمؤثرات الشائعة في الجماعة.

دعوة إلى التعامل مع الواقع البسيط، لا مع القضايا والدعاوى الرائجة ولا مع العبارات المطاطة، التي تبعد القلب والعقل من مواجهة الحقيقة في بساطتها.

دعوة إلى منطق الفطرة الهادئ الصافي، بعيدًا عن الضجيج والخلط واللبس والرؤية المضطربة والغبش الذي يحجب صفاء الحقيقة.

---

(١) تفسير الطبري (٢٠/ ٨٦).

(٢) تفسير القرطبي (١٤/ ٨).

وهي في الوقت ذاته منهج في البحث عن الحقيقة. منهج بسيط يعتمد على التجرد من الرواسب والغواشي والمؤثرات. وعلى مراقبة الله وتقواه"[١]، فلم يصف سيد رحمه الله التفكر بأنه جلوس للتأمل، بل أطلق عليه "دعوة إلى القيام لله". هذه العبارة وحدها تنقل الفكرة من السكون إلى الحركة، ومن الفكر المجرد إلى العمل والنهضة الروحية. إنه يجعل التفكر فعلًا إيجابيًا، وثورة داخلية، وعبادة حركية تبدأ بالنية الخالصة لله.

ويوضح السعدي رحمه الله أن القرآن يقدم للمعاندين موعظة ومنهجًا واضحًا: "قوموا لله... ثم تفكروا". هذا يعني أن أول خطوة هي التجرد والقيام لله، والخطوة الثانية هي إعمال الفكر فيقول: "فإذا قمتم لله، مثنى وفرادى، استعملتم فكركم، وأجلتموه، وتدبرتم أحوال رسولكم، هل هو مجنون، فيه صفات المجانين من كلامه، وهيئته، وصفته؟! أم هو نبي صادق، منذر لكم ما يضركم، مما أمامكم من العذاب الشديد؟

فلو قبلوا هذه الموعظة، واستعملوها، لتبين لهم أكثر من غيرهم، أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، ليس بمجنون، لأن هيئاته ليست كهيئات المجانين، في خنقهم واختلاجهم ونظرهم، بل هيئته أحسن الهيئات، وحركاته أجل الحركات، وهو أكمل الخلق، أدبًا، وسكينة، وتواضعًا، ووقارًا"[٢]، فيقدم السعدي رحمه الله منهج تفكير عملي وبسيط للغاية، وهو فحص أحوال الرسول ﷺ ومقارنتها بأحوال المجانين. هذا لا يتطلب فلسفة معقدة، بل مجرد نظر في الواقع: هيئته، كلامه، حركاته، وأخلاقه. الكفار كانوا يعيشون معه ويعرفونه جيدًا، لكنهم كانوا يتجنبون تطبيق هذا المقياس العقلي البسيط لأنهم يخشون نتيجته. فكان موقفهم هو الإعراض عن الأدلة المتاحة والملموسة.

١٥) **الموضع** الخامس عشر: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢].

يقرر البقاعي رحمه الله أن التفكر في الوفاة والنوم من آيات الله العظيمة من خلال ربط هذه الظاهرة بدلالاتها العميقة على قدرة الله وحكمته، وجعل التفكر الأداة الوحيدة لكشف هذه الدلالات، فيقول: "{إن في ذلك} أي الأمر العظيم من الوفاة والنوم على هذه الكيفية والعبارة عنه على هذا الوجه {لآيات}

---

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٢٩١٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص: ٦٨٢).

أي على أنه لا يقدر على الإحياء والحفظ غيره، وأنه قادر على البعث وغيره من كل ما يريده. {لقوم} أي ذوي قوة في مزاولة الأمور. ولما كان هذا الأمر لا يحتاج إلى غير تجريد النفس من الشواغل والتدبر قال: {يتفكرون} أي: في عظمة هذا التدبير ليعلم به عظمة الله"[1]، فيربط البقاعي رحمه الله التفكر بالقدرة الحصرية لله، حينما يؤكد أن التفكر في هذه الظاهرة يقود إلى نتيجة حتمية، وهي أن الله وحده هو من يملك القدرة على الإحياء والإماتة والحفظ ("لا يقدر على الإحياء والحفظ غيره"). فالتفكر هنا هو الذي يثبت تفرد الله بهذه الأفعال المطلقة.

ويوظف المراغي رحمه الله آية الوفاة والنوم توظيفًا دقيقًا ليبرهن على كمال قدرة الله وحكمته، وذلك من خلال تفكيك هذه الظاهرة المعقدة إلى مكوناتها التي لا يمكن تفسيرها إلا بقدرة إلهية مطلقة، فيقول: "(إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) أي إن فيما ذكر لآيات عظيمة دالة على كمال قدرته تعالى وحكمته لمن يتفكر في طريق تعلق الأنفس بالأبدان وتوفيها عنها بانقطاع تصرفها حين الموت مع بقائها في عالم آخر إلى أن يعيد الله الخلق، وفي قطع تصرفها فى الظاهر فقط في حال النوم، ثم إرسالها حال اليقظة إلى انقضاء آجالها"[2]، فلم يتوقف المراغي رحمه الله عند مجرد حقيقة النوم والموت، بل دعا إلى التفكر في العلاقة الغامضة والدقيقة بين النفس والجسد. فكيفية هذا "التعلق"، وكيفية انقطاعه جزئيًّا أو كليًّا، هي عملية معقدة وخفية تدل على وجود مهندس عظيم يديرها بكمال العلم والقدرة.

١٦) الموضع السادس عشر: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣].

وجَّه الطبري الحث على التفكر في الآية للتدليل على وحدانية الله، وربط فعل "التسخير" الإلهي بالنتيجة العقلية الحتمية وهي استحالة وجود شريك له فقال: "وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: إن في تسخير الله لكم ما أنبأكم أيها الناس أنه سخره لكم فى هاتين الآيتين (لآيَاتٍ) يقول: لعلامات ودلالات على أنه لا إله لكم غيره، الذي أنعم عليكم هذه النعم، وسخر لكم هذه الأشياء التي لا يقدر على تسخيرها غيره لقوم يتفكرون في آيات الله وحججه وأدلته، فيعتبرون بها

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٦/ ٥١٩).

(٢) تفسير المراغي (٢٤/ ١٣).

ويتعظون إذا تدبروها، وفكَّروا فيها"[١]، فيبرز الطبري الحجة المنطقية الأساسية للتوحيد بقوله إن هذه الأشياء المسخرة "لا يقدر على تسخيرها غيره". فالتفكير هنا ليس مجرد تأمل في عظمة القوة، بل هو تفكير مقارن يقود العقل إلى استنتاج أن أي إله مزعوم آخر عاجز تمامًا عن فعل مثل هذا.

ويصف سيد قطب التفكير بأنه رحلة معرفية إيمانية عميقة وشاملة، تربط بين الاكتشاف العلمي والحقيقة الإلهية فيقول في تفسير الآية: "والفكر لا يكون صحيحًا وعميقًا وشاملًا، إلا حين يتجاوز القوى والطاقات التي يكشف سرها، إلى مصدر هذه القوى والطاقات وإلى النواميس التي تحكمها وإلى الصلة بين هذه النواميس وفطرة الإنسان. هذه الصلة التي تيسر للإنسان الاتصال بها وإدراكها. ولولاها ما اتصل ولا أدرك. ولا عرف ولا تمكن، ولا سخر ولا انتفع بشيء من هذه القوى والطاقات"[٢]، فالعقل لا يكتفي بمعرفة أن شيئًا ما يحدث، بل يسعى لإدراك "النواميس التي تحكمها"، أي القوانين الكلية الثابتة التي وضعها الله، مما ينقل الفكر من الملاحظة الجزئية إلى فهم النظام الكلي.

١٧) **الموضع** السابع عشر: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

يرى ابن عاشور أن لضرب الأمثال في القرآن وظيفة مزدوجة؛ فهي من جانبٍ دعوةٌ صريحةٌ إلى إعمال الفكر، ومن جانبٍ آخر حجةٌ دامغةٌ على من يُعرض عن هذا التفكر. ويتجلى ذلك في قوله: "وجملة ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ تذييل لأن ما قبلها سيق مساق المثل فذيِّل بأن الأمثال التي يضربها الله عز وجل في كلامه مثل المثل، أراد منها أن يتفكروا، فإن لم يتفكروا بها فقد سجل عليهم عنادهم ومكابرتهم"[٣]، وهكذا، يتضح أن للمثل القرآني مقصدين متلازمين:

الأول: تحقيق التفكر، باعتباره غاية أساسية ومقصودة.

الثاني: أن يصبح المثل نفسه برهانًا يكشف عناد المكابرين ويقيم الحجة عليهم.

١٨) الموضع الثامن عشر: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ [المدثر: ١٨].

---

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٣٢٢٧).

(٢) تفسير الطبري (٢٢/ ٦٥).

(٣)التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٠٧).

عرض ابن عاشور رحمه الله التوظيف السلبي للتفكير بشكل بليغ من خلال تشريح دقيق لدوافع وأهداف الشخصية التي تفكر، مبينًا كيف يمكن أن تتحول هذه الملكة العقلية النبيلة إلى أداة للهدم والتضليل فقال في تفسير الآية: "وقد وصف حاله في تردده وتأمله بأبلغ وصف. فابتُدِئَ بذكر تفكيرِه في الرأي الذي سيصدر عنه وتقديرِه. ومعنى (فكر) أعمل فكره، وكرر نظر رأيه ليبتكر عذرًا يموهه ويروجه على الدهماء في وصف القرآن بوصف كلام الناس ليزيل منهم اعتقاد أنه وحي أوحي به إلى النبي صلى الله عليه وسلم"[1]، فابن عاشور رحمه الله يوضح أن عملية التفكير هنا لم تنطلق من فراغ أو من رغبة في الوصول للحقيقة، بل انطلقت من هدف مسبق وهو "ابتكار عذر". فالفكر هنا ليس أداة بحث، بل أداة صناعة وتلفيق، استخدمت للبحث عن مخرج لتبرير موقف معادي مسبقًا.

ويتألق سيد قطب رحمه الله في عرض هذه الحالة بأسلوب تصويري حي، محولًا الكلمات إلى كاميرا ترصد أدق الحركات والخلجات، ليجعل القارئ لا يقرأ عن شخصية، بل يشاهدها ويشعر بها في حالة من السخرية والتهكم فيقول: "لمحة لمحة. وخطرة خطرة. وحركة حركة. يرسمها التعبير، كما لو كانت ريشة تصور، لا كلمات تعبر، بل كما لو كانت فيلمًا متحركًا يلتقط المشهد لمحة لمحة!!! لقطة وهو يفكر ويدبر ومعها دعوة هي قضاء «فَقُتِلَ!» واستنكار كله استهزاء «كَيْفَ قَدَّرَ؟» ثم تكرار الدعوة والاستنكار لزيادة الإيحاء بالتكرار.

ولقطة وهو ينظر هكذا وهكذا في جد مصطنع متكلف يوحي بالسخرية منه والاستهزاء.

ولقطة وهو يقطب حاجبيه عابسًا، ويقبض ملامح وجهه باسرًا، ليستجمع فكره في هيئة مضحكة! وبعد هذا المخاض كله؟ وهذا الحزق كله؟ لا يفتح عليه بشيء.. إنما يُدْبِر عن النور ويستكبر عن الحق"[2]، بهذا الأسلوب اللاذع، لا يكتفي سيد قطب رحمه الله بإدانة هذا التفكير المنحرف، بل يرسم له صورة مضحكة ومثيرة للشفقة في آن واحد، مما يغرس في نفس القارئ شعورًا بالازدراء لهذا النوع من التفكير وبشاعته.

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ١١٧).

(٢) في ظلال القرآن (٦/ ٣٧٥٧).

المحور الثاني

المحور الثاني: معرفة الوحي: القِيَم اليقينية والدلالات المعرفية

المحور الثاني

معرفة الوحي: القِيَم اليقينية والدلالات المعرفية

تتجلى الدلالات المعرفية للوحي في كونه:

١) مصدرًا للحقائق الكلية: يقدم القرآن الكريم رؤية شاملة للكون والإنسان والحياة، تحدد غاية الوجود ومكانة الإنسان فيه، يقول تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]. هذه الرؤية الكلية تمنح العقل إطارًا مرجعيًا لفهم الظواهر الجزئية وربطها بغاياتها الكبرى.

٢) مصدرًا للقيم الأخلاقية المطلقة: يضع الوحي منظومة أخلاقية ثابتة تحدد الخير والشر والحسن والقبيح، وتضبط سلوك الإنسان وعلاقاته. هذه القيم لا تتغير بتغير الأهواء والمصالح، مما يوفر للمجتمع أساسًا متينًا للاستقرار والتماسك.

وأسمى القيم الحاكمة ثلاث: ١. التوحيد ٢. التزكية ٣. العمران. وسائر القيم الأخرى الكلية منها والجزئية تنتهي إلى هذه القيم الثلاث التي لا يمكن أن ينفصل أي منها عن الآخرين؛ فالتوحيد غاية التزكية وهدفها، ووسيلتها في الوقت ذاته. والعمران ثمرة للتوحيد والتزكية معًا[1].

٣) مصدرًا للتشريع: يحدد الوحي الأحكام العملية التي تنظم حياة الفرد والمجتمع في مختلف جوانبها، من عبادات ومعاملات وأحوال شخصية. وهذا التشريع يهدف إلى تحقيق مصالح العباد في الدنيا والآخرة.

فالوحي يُقدم مجموعة من القيم اليقينية التي تحمي من الضلالات، وتشكل أساس التصور الإسلامي للوجود؛ لأنه المصدر الذي يمنح المعرفة صفة اليقين المطلق في قضايا الإيمان الأساسية، مثل: وجود الله ووحدانيته وصفاته، والبعث والجزاء، والجنة والنار. وهي قضايا غيبية تقع خارج نطاق الإدراك الحسي المباشر للعقل، ومن ثَمَّ فإن الوحي هو السبيل الوحيد لمعرفتها على وجه اليقين.

وأبرز هذه القيم اليقينية التي يقدمها الوحي ما يأتي:

---

(١) ينظر:. التوحيد ومبادئ المنهجية، د. طه جابر العلواني (ص ٢١).

القيمة الأولى: الوحي يقدم معرفة تتجاوز المعارف البشرية:

يتميز الوحي بأنه مصدرٌ للمعرفة يسمو على القدرات البشرية، التي تظل غالبًا حبيسة العالم المادي المحسوس. فبينما تعتمد المعارف الإنسانية على وسائل محدودة، ينبثق الوحي من علم الله المطلق الذي يحيط بالظاهر والباطن، والغيب والشهادة.

وتتجلى هذه القيمة بوضوح في آياتٍ بيّنات تؤكد أن ما أنزله الله مصدره علمه المحيط بكل شيء، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦]، وقوله: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١]، وقوله: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ [فصلت: ٤٧].

فعن الوحي تصدر كل المعارف العظمى، ويؤكد هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم، مبيّنًا خصوصية الوحي الذي أُوتيه مقارنةً بمعجزات الأنبياء السابقين: «**مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(١).

كما أن الوحي يشمل كل المعارف الغيبية التي تحتاجها الإنسانية مما لا يمكن أن يحيط بها الماديون: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٣٩]، فهم بتصوراتهم القاصرة يصيبون أنفسهم بالظلم ويظلمون العالم فوق ذلك.

ويظهر أن تشويشًا اعترى فكر الفخر الرازي عندما قال في تفسير قوله تعالى: {هُدًى لِلْمُتَّقِينَ} [البقرة:٢]: "السؤال الثالث: كل ما يتوقف صحة كون القرآن حجة على صحته لم يكن القرآن هدى فيه؛ فإذن استحال كون القرآن هدى في معرفة ذات الله تعالى وصفاته، وفي معرفة النبوة، ولا شك أن هذه المطالب أشرف المطالب، فإذا لم يكن القرآن هدى فيها فكيف جعله الله تعالى هدى على الإطلاق؟!... **فإن الله تعالى وصفه بكونه هدى من غير تقييد في اللفظ، مع أنه يستحيل أن يكون هدى في إثبات الصانع وصفاته وإثبات النبوة، فثبت أن المطلق لا يفيد العموم**"(٢).

---

(١) صحيح البخاري، حديث رقم (٤٩٨١)، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزول الوحي، وأول ما نزل.

(٢) تفسير الرازي (٢/ ٢٦٩).

وهذا ارتباك شديد، أو ذهول أكيد، ولعل في الكتاب سقطًا أو أمرًا لم ندركه، ولا يشبه هذا طريقة الرازي في تفسير القرآن، ولكننا إن صح فهمنا له نجيب بالآتي إجمالًا:

والعقل والعادة يوجبان التصديق بكون القرآن كلام الله، وبعد التصديق بذلك ينبغي أن نعمل بصائرنا في الهدايات التي هدى إليها القرآن، ومنها كيفية اليقين بأعظم اليقينيات، وهي الإلهيات والنبوات؛ ولذا قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]. قال الزجاج والكلبي والفراء: "للحال التي هي أقوم الحالات، وهي توحيد الله والإيمان برسله"(١).

القيمة الثانية: تقديم أصول التشريعات الدقيقة التي تهدي الإنسانية سبل السلام:

تتميز الشريعة الإلهية بتقديمها أصولًا تشريعية ثابتة ودقيقة، تهدف إلى هداية البشرية نحو السلام والاستقرار. وعلى النقيض من ذلك، تتسم التشريعات الوضعية بالتقلب والتأثر بالمصالح المتغيرة، مما يؤدي إلى تناقضات واضحة. يتجلى هذا الخلل في آليات مثل حق النقض (الفيتو) الذي يعطل العدالة، والمواقف المزدوجة من محكمة العدل الدولية، والسعي إلى تشريع الفاحشة.

إن هذا الابتعاد عن التشريع الإلهي هو ما حذَّر منه القرآن الكريم، حيث يُعَدُّ التشريع بغير إذن الله تعديًا على سلطانه: ﴿**أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [الشورى: ٢١]، ويصل هذا الانحراف إلى حد تغيير جوهر الفطرة التي فطر الله الناس عليها، طاعةً للشيطان ﴿**وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ**﴾ [النساء: ١١٩].

القيمة الثالثة: مسائل الوحي أساسها الجانب الإيماني الذي يستند إلى الجانب المعرفي:

فالإيمان بأن القرآن الكريم {تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الواقعة: ٨٠] ليس تسليمًا أعمى، بل هو قناعة مؤسَّسة على العقل؛ ولهذا فإن قضاياه الكبرى قائمة على البرهان العقلي، حيث يدعو الإنسان باستمرار إلى التفكر والتدبر لإدراك الحقائق الإيمانية.

---

(١) انظر: مناقشة دعوى الرازي: عدم هداية القرآن إلى العلم بالله وأنبيائه، موقع مركز السلف: https: / /salafcenter.org /٩٨٧٩/

القيمة الرابعة: التكامل بين مصادر المعرفة (الوحي والعقل والحس):

بيّن ابن جرير الطبري (ت: ٣١٠ هـ) أن كل المعارف ترجع إما إلى الحس أو الاستدلال العقلي المبني عليه، فقال: «كل معلوم للخلق من أمر الدين والدنيا لا يخرج من أحد معنيين: من أن يكون إما معلومًا لهم بإدراك حواسهم إياه، وإما معلومًا لهم بالاستدلال عليه بما أدركته حواسهم»(١).

وأوضح شيخ الإسلام ابن تيمية (ت: ٧٢٨ هـ) العلاقة الوثيقة بينهما، فليس أحدهما نقيضًا للآخر، بل إن ما يرشد إليه الشرع من المعقولات يصبح علمًا شرعيًّا وعقليًّا في آنٍ واحد، فـ «تكون الشرعية قسمين: عقلية وسمعية... وأن بين العقلية والشرعية عمومًا وخصوصًا ليس أحدهما قسيم الآخر، وإنما السمعي قسيم العقلي»(٢).

ويمكن تلخيص مصادر العلم المعتبرة في القاعدة الجامعة التي وضعها ابن تيمية بقوله: "العلم إما نقل مصدق، وإما استدلال محقق"(٣)، وقوله: "العلم إما نقل مصدق عن معصوم، وإما قول عليه دليل معلوم، وما سوى هذا فإما مزيف مردود، وإما موقوف لا يعلم أنه بَهْرَج ولا منقود"(٤).

وتقوم هذه المنظومة المعرفية المتكاملة على بنية محكمة فصلها ابن تيمية بقوله :«فطرق العلم ثلاث: أحدها: الحس الباطن والظاهر، وهو الذي تعلم به الأمور الموجودة بأعيانها. والثاني: الاعتبار بالنظر والقياس، وإنما يحصل العلم به بعد العلم بالحس، فما إفاده الحس معينًا يفيده العقل والقياس كليًا مطلقًا، فهو لا يفيد بنفسه علم شيء معين، لكن يجعل الخاص عامًا، والمعين مطلقًا، فإن الكليات إنما تعلم بالعقل، كما أن المعينات إنما تعلم بالإحساس. والثالث: الخبر، والخبر يتناول الكليات والمعينات والشاهد والغائب، فهو أعم وأشمل... والمقصود هنا أن الخبر أيضًا لا يفيد إلا مع الحس أو العقل... فكما أن العقل بعد الحس، فالخبر بعد العقل والحس، فالإخبار يتضمن هذا»"(٥).

وألف الغزالي كتابه (معيار العلم) مبينًا أن أهم أهدافه تفهيم طرق الفكر والنظر، وتنوير مسالك الأقيسة والعبر؛ فإن العلوم النظرية لما لم تكن بالفطرة والغريزة مبذولة وموهوبة كانت لا محالة

---

(١) التبصير في معالم الدين للطبري» (ص١١٢).

(٢) مجموع الفتاوى (١٩/ ٢٣٣).

(٣) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٤٤).

(٤) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٣٠).

(٥) درء تعارض العقل والنقل (٧/ ٣٢٤).

مستحصَلَة مطلوبة [١]، محاولًا حصر المعرفة في أداة واحدة، حيث اعتبر المنطق الأرسطي هو المعيار الحصري لتمييز صحيح الفكر من فاسده.

إلا أن هذا التوجّه قوبل بنقد شديد لأنه يضيّق أبواب المعرفة الواسعة ويحصرها في علم دقيق وصعب، ليتحول بذلك من "معيارٍ" للعلم إلى "مِغلاقٍ" لطرقه. ولهذا، خلص النقاد إلى أن هذا المنطق، مع شدة تعقيده، لا يقدم فائدة علمية حقيقية، بل هو مجرد **"إتعاب للأذهان وتضييع للزمان وكثرة للهذيان"**، وقد يصبح عائقًا أمام تحصيل المعرفة التي يمكن إدراكها بدونه بطرق أيسر وأسلم[٢].

وفي المنظور الإسلامي، لا يُنظر إلى العقل والوحي كخصمين يتصارعان على الحقيقة، بل كمصدرين متكاملين للمعرفة ينسجان معًا رؤية كاملة للوجود. فالعقل الصريح هو هبة إلهية تُمكِّن الإنسان من تأمل الكون وإدراك عظمة خالقه، وهو الذي يرشدنا إلى ضرورة البحث عن هداية إلهية، مدركًا بصدق أن قدراته تقف عند عتبة الغيب والأسئلة الكبرى حول غاية الحياة.

يقول الإمام أبو حامد الغزالي عن استحالة تعارض العقل والوحي «وتعثر بأذيال الضلالات من لم يجمع بتأليف الشرع والعقل هذا الشتات. فمثال العقل البصر السليم عن الآفات والأذاء. ومثال القرآن الشمس المنتشرة الضياء.... فالمعرض عن العقل مكتفيًا بنور القرآن، مثاله المتعرض لنور الشمس مغمضًا للأجفان، فلا فرق بينه وبين العميان. فالعقل مع الشرع نور على نور، والملاحظ بالعين العور لأحدهما على الخصوص متدل بحبل غرور»[٣].

وقال ابن تيمية «العقل شرط في معرفة العلوم وكمال وصلاح الأعمال وبه يكمل العلم والعمل؛ لكنه ليس مستقلًا بذلك؛ بل هو غريزة في النفس وقوة فيها بمنزلة قوة البصر التي في العين؛ فإن اتصل به نور الإيمان والقرآن كان كنور العين إذا اتصل به نور الشمس والنار. وإن انفرد بنفسه لم يبصر الأمور التي يعجز وحده عن دركها وإن عُزل بالكلية: كانت الأقوال والأفعال مع عدمه: أمورًا حيوانية قد يكون فيها محبة ووَجْدٌ وذوق كما قد يحصل للبهيمة»[٤].

---

(١) معيار العلم في فن المنطق (ص ٥٩).

(٢) ينظر: عمار محمد أعظم: الحَجر على ذوي الحِجر..العلاقة بين الوحي ومصادر المعرفة. مقال منشور في موقع سلف للدراسات والبحوث، رابط المقال: https: / /salafcenter.org/٦٨٧٩/

(٣) الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي (ص١٠).

(٤) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٣٨).

ويقول سيد قطب رحمه الله: "والعقل بمصاحبة وحي الله وهداه بصير، وبترك وحي الله وهداه أعمى"(١).

والعقل وحده له حدود، ولا يمكنه إدراك تفاصيل المصالح والمفاسد الكبرى دون هداية من الوحي. ويوضح الشاطبي هذه الحقيقة فيقول: "فالعادة تحيل استقلال العقول في الدنيا بإدراك مصالحها ومفاسدها على التفصيل، اللهم إلا أن يريد القائل: إن المعرفة بها تحصل بالتجارب وغيرها بعد وضع الشرع أصولها؛ فذلك لا نزاع فيه"(٢).

وعندما يُهمل هذا التكامل، ويُعتمد على الذكاء المجرد عن هداية الوحي، تكون النتيجة هي الحيرة والضلال. وفي ذلك يقول ابن تيمية واصفًا حال من سلك هذا الطريق: "أُوتُوا ذَكَاءً وَمَا أُوتُوا زكَاءً، وَأُعْطُوا فُهُومًا وَمَا أُعْطُوا عُلُومًا، وَأُعْطُوا سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً: {فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [الأحقاف: ٢٦]"(٣).

القيمة الخامسة: المعرفة التي يقدمها الوحي تقتضي القطع المطلق لأنها صادرة عن الله الذي أحاط بكل شيء علمًا مع وجوب التفريق بين اليقين الذي تقدمه المحكمات، والفهم الإنساني للمتشابه منها:

المعرفة المستمدة من الوحي هي معرفة يقينية قاطعة، لأن مصدرها هو الله العليم الذي أحاط بكل شيء علمًا. ولهذا يُعَدُّ الوحي -والقرآن في ذروته- "عمدة الملة وينبوع الحكمة"، بل هو "مفجر العلوم ومنبعها" الذي تستمد منه كل المعارف الهادية. غير أن هذا اليقين المطلق يختص بأصول الدين وقواعده المُحكَمة الواضحة، مع وجوب التفريق بينها وبين النصوص المتشابهة؛ حيث يكمن اليقين في كونها وحيًا من عند الله، بينما يبقى الفهم البشري لها مجالًا للنظر والاجتهاد.

قال الشاطبي رحمه الله: "إن الكتاب قد تقرر أنه كلية الشريعة، وعمدة الملة، وينبوع الحكمة، وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر، وأنه لا طريق إلى الله سواه، ولا نجاة بغيره، ولا تمسك بشيء يخالفه، وهذا كله لا يحتاج إلى تقرير واستدلال عليه؛ لأنه معلوم من دين الأمة، وإذا كان كذلك لزم ضرورة لمن رام الاطلاع على كليات الشريعة وطمع في إدراك مقاصدها، واللحاق بأهلها، أن يتخذه سميره وأنيسه،

---

(١) في ظلال القرآن (ص ١٠٩٩).

(٢) الموافقات (٢/ ٧٨).

(٣) تقريب فتاوى ابن تيمية (١/ ٤٠٧).

وأن يجعله جليسه على مر الأيام والليالي؛ نظرًا وعملًا، لا اقتصارًا على أحدهما؛ فيوشك أن يفوز بالبغية، وأن يظفر بالطلبة، ويجد نفسه من السابقين في الرعيل الأول"[١].

وقال السيوطي رحمه الله: "وإن كتابنا القرآن لهو مفجر العلوم ومنبعها، ودائرة شمسها ومطلعها، أودع فيه سبحانه وتعالى علم كل شيء، وأبان فيه كل هدْيٍ وغي، فترى كل ذي فن منه يستمد وعليه يعتمد"[٢].

القيمة السادسة: الثبات وعدم التحريف: فقد حفظ الله الوحي (القرآن والسنة الصحيحة) من التحريف، بخلاف مصادر المعرفة البشرية التي يدخلها النقص والتحوير، والتغيير.

تتجلى قيمة الثبات وعدم التحريف في أن المصادر الأساسية للإسلام، وهي القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، محفوظة بحفظ إلهي مباشر يجعلها مرجعًا ثابتًا وموثوقًا بشكل مطلق. فهذا الحفظ هو وعد قطعي من الله تعالى الذي قال في كتابه: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾. ولأن السنة النبوية هي الشارحة والمبينة لهذا "الذِّكر"، فقد شملها الحفظ الإلهي أيضًا، ويظهر هذا الثبات جليًّا عند مقارنة هذا الوحي المحفوظ بمصادر المعرفة البشرية كالنظريات والفلسفات التي يدخلها حتمًا النقص والتحوير، ويطالها التغيير بمرور الزمن. وبذلك، يمنح هذا الأصلُ العظيمُ المسلمَ يقينًا راسخًا وطمأنينة مطلقة بأن أساس دينه نقي وثابت، لم تمسسه يد التحريف، بخلاف من يرتكزون على أسس بشرية متغيرة.

القيمة السابعة: ربط الحقائق الإيمانية بحقائق الوجود المادية:

تتميز المعرفة في الإسلام بأنها تربط الحقائق الإيمانية المجردة بالحقائق الكونية المادية، فلا تقدم الإيمان كقضية روحية منعزلة، بل تجعل من الكون أساسًا عظيمًا لإثبات وحدانية الله، ويتجلى هذا بوضوح في ربط القرآن بين توحيد الألوهية (استحقاق الله للعبادة) ودلائل ربوبيته (أفعاله في الخلق)، كما في قوله تعالى بعد أن ذكر خلق الأرض والسماء وإنزال المطر: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

---

(١) الموافقات للشاطبي (٤/ ١٤٤).

(٢) الاتقان في علوم القرآن (١/ ١٦).

وهذا يعني الحث الشديد على اكتشاف السنن المادية، والقوانين التفصيلية في الكون المشاهد، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]،

ومهما اكتشفنا من شيء فلا بد أن يزيدنا هدى ويقينًا بربنا ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٣].

فيربط الوحي بين معرفته وبين البحث العقلي والحسي ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ [الأعلى: ١-٥]

ويوضح الإمام الماتريدي رحمه الله أن الأمر الإلهي بـ ﴿**قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا**...﴾ هو دعوة صريحة للنظر في "الآيات الحسية" للاعتبار والتفكر بعد قيام الحجة العقلية والسمعية، فيقول: «وقوله عز وجل: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١] ليس على الأمر بالسير في الأرض، ولكن على الاعتبار والتفكر فيما نزل بأُولَئِكَ بتكذيبهم الرسل؛ لأنه عز وجل أراهم آيات عقلية وسمعية، فلم ينفعهم ذلك، فأراد أن يريهم آيات حسية ليمنعهم ذلك عن التكذيب والعناد»[(١)].

وبهذا، فإن الإسلام لا يفصل بين الإيمان والعلم، بل يحث على اكتشاف السنن المادية وقوانين الكون، واثقًا من أن كل اكتشاف جديد سيزيد المؤمنين يقينًا، تحقيقًا للوعد الإلهي: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾.

القيمة الثامنة: حدود العقل البشري محصورة:

العقل وسيلة المعرفة، ولتظهر معرفته بصورة صحيحة لا بد من الاعتراف بمواضع عجزه وقصوره، فهو محدود في مجالات الغيب والحقائق المطلقة، فلا سبيل للمعرفة التفصيلية فيها إلا بواسطة الوحي.

فمجال عمل العقل هو عالم الشهادة وما يمكن قياسه والاستدلال عليه. أما عالم الغيب، كمعرفة كُنه الذات الإلهية، أو تفاصيل الجنة والنار، أو موعد يوم القيامة، فهذه أمور تتجاوز قدرته واستيعابه، والخوض فيها بالاعتماد على العقل وحده يؤدي إلى التخبط والضلال.

في هذا المجال، يأتي دور الوحي ليقدم الإجابات اليقينية، فيكون العقل مُستقبِلًا ومُصدِّقًا ومُتفكِّرًا في هذا النور الإلهي.

---

(١) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٤/ ٢٩).

وقد وضع القرآن الكريم هذا الحد الفاصل بوضوح تام، فقال تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩].

القيمة التاسعة: إفادة اليقين في مجالات فشل فيها العقل وحده مثل المبدأ والمعاد، والتشريعات التي تقيم الحياة في الأرض في المسائل الفكرية الاعتقادية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية:

يسعى العقل البشري دائمًا للإجابة عن الأسئلة الكبرى: "من أين أتينا؟" (المبدأ)، و"إلى أين نذهب؟" (المعاد). وعندما يُترك العقل وحده، فإنه يصل إلى إجابات وفلسفات متضاربة لا تمنح الإنسان يقينًا وطمأنينة.

وهنا يأتي دور الوحي، لا ليلغي العقل، بل ليمنحه النور في المجالات التي يعجز عن إدراكها وحده، فيقدم إجابات شافية ويقينية عن حقيقة الخالق والمصير بعد الموت.

كما أن هذا اليقين يمتد من العقيدة إلى الحياة، حيث يقدم التشريع الإلهي منظومة متكاملة وعادلة للحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، تحمي الإنسان من تخبط القوانين الوضعية القائمة على الأهواء والمصالح المحدودة.

وقد لخص الفيلسوف ابن رشد هذه الغاية الكبرى للوحي في كتابه بعبارة جامعة، حيث بيَّن أن هدف الشريعة هو تحقيق أمرين: العلم الحق والعمل الحق، فقال: «مقصود الشرع إنما هو تعليم العلم الحق والعمل الحق. والعلم الحق هو معرفة الله تبارك وتعالى وسائر الموجودات على ما هي عليه، وبخاصة الشريفة منها، ومعرفة السعادة الأخروية والشقاء الأخروي. والعمل الحق هو امتثال الأفعال التي تفيد السعادة، وتجنب الأفعال التي تفيد الشقاء»[1].

القيمة العاشرة: التوجيه العقلي من أعظم وسائل الدعوة إلى الله

حدد الوحي للعقل مجاله الأوسع للإبداع والتفكر، وهو "عالم الشهادة" أي الكون المنظور وقوانينه. أما في عالم الغيب (كصفات الله واليوم الآخر)، فإن دوره هو الفهم والتصديق بما جاء به النص الشرعي، إذ لا يملك الأدوات اللازمة للخوض في كنه هذه الحقائق وحده.

وبهذا التوجيه، يصبح العقل أداة دعوة قوية، لأن السعادة الحقيقية هي في معرفة الله، وهذه المعرفة تتحقق بالنظر العقلي الذي يرشد إليه الوحي ويسدده.

---

(١) فصل المقال (ص٥٤).

وقد أوضح ابن رشد أن الشريعة الإسلامية جاءت لتخاطب كل الناس على قدر عقولهم، وهذا سر عالميتها، فمنهم من يقتنع بالبرهان العقلي، ومنهم بالجدل، ومنهم بالموعظة، وكلها طرق دعت إليها الشريعة للوصول إلى الله. يقول في:

«...إن شريعتنا هذه الإلهية حق، وأنها التي نبهت على هذه السعادة ودعت إليها، التي هي المعرفة بالله عز وجل وبمخلوقاته... وذلك أن طباع الناس متفاوتة في التصديق: فمنهم من يصدق بالبرهان، ومنهم من يصدق بالأقاويل الجدلية... ومنهم من يصدق بالأقاويل الخطابية... ولذلك خُصَّ عليه السلام بالبعث إلى الأحمر والأسود، أعني لتضمن شريعته طرق الدعاء إلى الله تعالى. وذلك صريح في قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾»[1].

(١) «فصل المقال لابن رشد» (ص٣٠).

المحور الثالث

معرفة الوحي: الضابط المنهجي لحركة العقل (نماذج من التراث)

يمثل التراث الفكري الإسلامي سجلًا غنيًا وعميقًا لكيفية تعامل العقل المسلم مع الوحي، ليس بوصفهما طرفي نقيض، بل بوصفهما مصدرين متكاملين للمعرفة، حيث شكّل الوحي الإلهي ضابطًا منهجيًا ومعيارًا حاكمًا لحركة العقل، لضمان سيره في طريق المعرفة اليقينية دون شطط أو ضلال. وتتجلى هذه العلاقة من خلال تطور المدارس الفكرية، والضوابط المنهجية التي أُسست، ومآلات من حاول تجاوز هذه الضوابط.

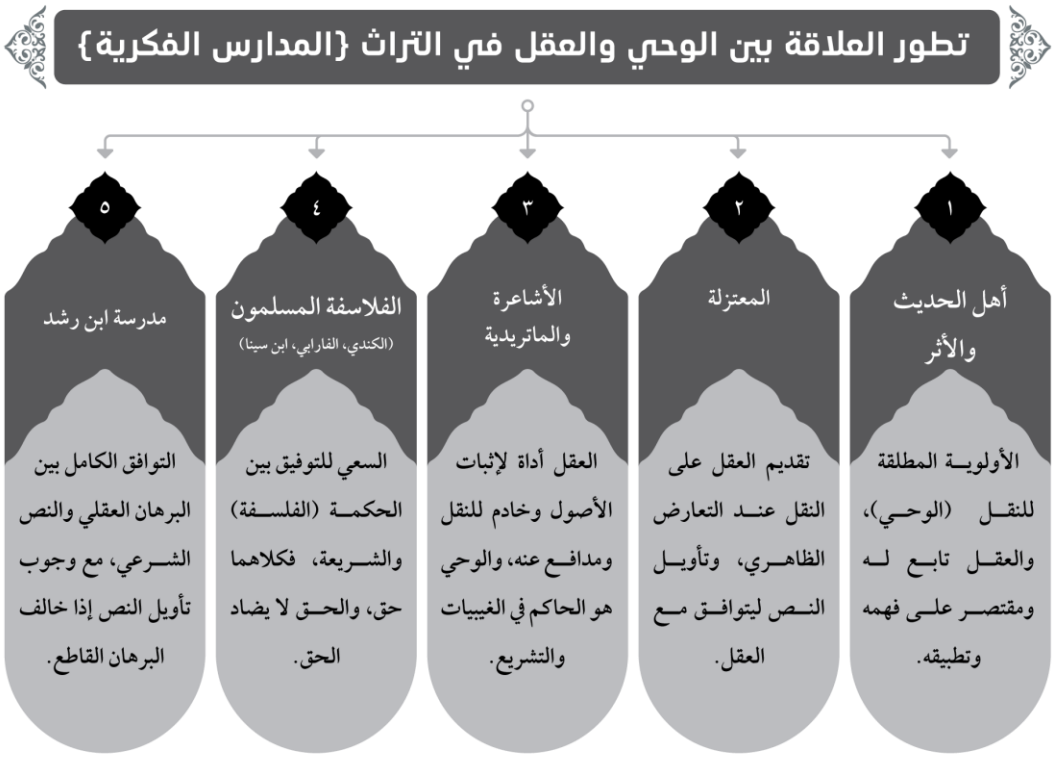

أولًا: تطور العلاقة بين الوحي والعقل في التراث (المدارس الفكرية)

تاريخيًا، تبلورت اتجاهات ومدارس فكرية مختلفة في فهم هذه العلاقة، تمثل نماذج تراثية غنية:

١) **أهل الحديث والأثر** :أعطوا الأولوية المطلقة للنقل (الوحي)، وجعلوا العقل تابعًا له بشكل كامل. بالنسبة لهم، الأصل في الدين هو الاتباع، ويقتصر دور العقل على فهم النصوص وتطبيقها كما وردت عن السلف، مع الحذر الشديد من التأويلات العقلية المجردة.

وهذا المنهج يضمن أعلى درجات الأمانة في الحفاظ على النص، لكنه قد يواجه تحديات في مرونة الاستجابة للمستجدات التي لا يوجد فيها نص مباشر.

٢) **المعتزلة**: عُرفوا بأنهم "أهل العقل" أو "أهل العدل والتوحيد"، وقد أعطوا للعقل مكانة كبيرة في الاستدلال على العقائد. قالوا بوجوب معرفة الله بالعقل حتى قبل ورود السمع (الوحي)، وعند حدوث تعارض ظاهري بين العقل والنقل، قدموا العقل وأوَّلوا النقل ليتوافق معه.

ورغم أن هذا المنهج عزز من توظيف الأدوات المنطقية في الفكر الإسلامي، إلا أنه واجه انتقادات واسعة لاحتمالية أن يجعل العقل البشري حكمًا على النص الإلهي، مما قد يفتح الباب لتأويلات بعيدة.

٣) **الأشاعرة والماتريدية**: حاولوا التوسط بين المنهجين السابقين، فأقروا بأهمية العقل كأداة للمعرفة وإثبات أصول الدين، لكنهم أكدوا على أن الوحي هو المصدر الحاكم والأساس في مسائل الغيبيات والتشريعات. ويرى علماء الغزالي أن «الشرع عقل من خَارج وَالْعقل شرع من دَاخل، وهما متعاضدان بل متحدان، وَلكَون الشَّرْع عقلًا من خَارج سلب الله تَعَالَى اسْم الْعقل من الْكَافِر فِي غير مَوضِع من الْقُرْآن نَحْو قَوْله تَعَالَى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨]، وَلكَون الْعقل شرعًا من دَاخل قَالَ تَعَالَى فِي صفة الْعقل: ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠]، فَسمى الْعقل دينًا، ولكونهما متحدين قَالَ: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ﴾ أَي نور الْعقل وَنور الشَّرْع، ثمَّ قَالَ: ﴿يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ﴾ [النور: ٣٥]، فَجَعلهَا نورا وَاحِدًا »[١].

وقد برر ابن العربي في (**قانون التأويل**) لجوء علماء الكلام عمومًا إلى الأدلة العقلية المفصلة، رغم إقرارهم بأن القرآن هو الأصل، لسببين: الأول هو بسط الأدلة العقلية الموجزة في القرآن، والثاني هو مقارعة الملاحدة والمبتدعة بمنطقهم وأدواتهم العقلية[٢].

وبذلك، مثّل هذا الاتجاه محاولة توفيقية كبرى تهدف إلى استخدام الأدوات العقلية كخادم للنقل ومدافع عنه، لا كحاكم عليه، مما جعله المنهج الكلامي الأكثر انتشارًا في تاريخ الإسلام.

---

(١) معارج القدس في مدارج معرفه النفس (ص٥٧).

(٢) ينظر: (ص ٥٠٢).

٤) **الفلاسفة المسلمون (مثل الكندي والفارابي وابن سينا)**: سعوا إلى التوفيق بين الفلسفة اليونانية (التي تمثل العقل البرهاني) وبين الدين (الوحي). رأوا أن لا تعارض حقيقيًا بين الحكمة والشريعة، فكلاهما حق، والحق لا يضاد الحق.

٥) **مدرسة ابن رشد**: يمثل ابن رشد نموذجًا متقدمًا في السعي للتوافق الكامل بين العقل والوحي. فقد قرر في كتابه "فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال" أن الشريعة هي التي أوجبت على الإنسان استخدام عقله في استكشاف الكون للوصول إلى معرفة الخالق، فيقول: «وإذا تقرر أن الشرع قد أوجب النظر بالعقل في الموجودات واعتبارها، وكان الاعتبار ليس شيئًا أكثر من استنباط المجهول من المعلوم، واستخراجه منه، وهذا هو القياس أو بالقياس. فواجب أن نجعل نظرنا في الموجودات بالقياس العقلي». ويستشهد على ذلك بآيات صريحة كقوله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢]، التي عدّها نصًّا على وجوب استعمال استعمال القياس العقلي، أو العقلي والشرعي معًا[١].

وقدم قواعد للتأويل ترفع هذا التعارض، مؤكدًا أن الوحي جاء متممًا لعلم العقل في الأمور التي يعجز عن إدراكها وحده.

واستدلال ابن رشد بآية ﴿فَاعْتَبِرُوا﴾ قد لا يكون دقيقًا في سياقه، حيث الأَوْلى تفسيرها بـ"الاتعاظ"، إلا أن القرآن في مواضع أخرى عديدة يدعو صراحةً إلى النظر العقلي. وبناءً على هذا، إذا أدى البرهان العقلي إلى نتيجة تخالف ظاهر النص الشرعي، فإنه يجب تأويل النص بما يتفق مع البرهان وقواعد اللغة، لأن العقل والشرع لا يمكن أن يتصادما. ويمتد هذا المبدأ ليشمل جواز مخالفة الإجماع في المسائل النظرية[٢].

---

(١) فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال لابن رشد (ص٢٢).

(٢) ينظر: مقال بعنوان: بين الدين والفلسفة: في رأي ابن رشد وفلاسفة العصر الوسيط، رابط المقال:
https://www.hindawi.org/books/٧٢٦٠٣٩٥١/٢,١/#fn.٥

ثانيًا: الضوابط المنهجية لحركة العقل في علاقته بالوحي[1]:

لم يكن دور الوحي قاصرًا على تقديم المعرفة، بل امتد ليشكل ضابطًا منهجيًا لحركة العقل. فمع أن الإسلام كرَّم العقل ودعا إلى إعماله في فهم نصوص الوحي ذاتها وفي النظر في ملكوت السماوات والأرض، فإن هذا الإعمال لم يُترك مطلقًا، بل وُضعت له ضوابط منهجية محكمة تضمن تكامله مع

(١) ينظر بحث: العلاقة بين حاكمية الوحي واجتهاد العقل (دراسة أصولية) (ص: ٤٢).

الوحي وتحفظه من الشطط. وتاريخ الفكر الإسلامي حافل بنماذج مشرقة لهذا التكامل، فعلماء الأصول، على سبيل المثال، وضعوا قواعد منهجية دقيقة للتعامل مع النصوص الشرعية، تجمع بين احترام النص وفَهْم دلالاته اللغوية والسياقية، وبين إعمال العقل في الاستنباط والقياس والترجيح عند وجود تعارض ظاهري بين الأدلة.

ومن النماذج البارزة في التراث الإسلامي على إعمال العقل بضوابط الوحي:

١) **أنموذج قواعد علم أصول الفقه**: يُعد هذا العلم أعظم مثال على المنهجية التي يتكامل فيها النقل والعقل. فالفقهاء والأصوليون لم يكتفوا بالنصوص، بل استعملوا أدوات عقلية دقيقة لاستنباط الأحكام الشرعية من مصادرها. فـ القياس، وهو إلحاق واقعة لا نص فيها بواقعة ورد فيها نص لاشتراكهما في علة الحكم، هو عملية عقلية بامتياز، لكنها منضبطة بالكامل بالبحث عن "العلة" المستنبطة من النص الشرعي نفسه. وكذلك مبادئ مثل الاستحسان والمصالح المرسلة هي أدوات عقلية تهدف لتحقيق مقاصد الشريعة (المعروفة بالوحي) في الواقع المتغير. فالعقل هنا لا يشرّع من عند نفسه، بل "يكتشف" مراد الشارع في الوقائع الجديدة.

٢) **أنموذج علم الكلام المُنضبط**: استخدم علماء العقيدة المسلمون (المتكلمون) المنطق والجدل العقلي للدفاع عن عقائد الإسلام التي أقرها الوحي. فعندما واجهوا الفلسفات اليونانية والشبهات المثارة حول العقيدة، لم يرفضوا العقل، بل استخدموه كسلاح لإثبات الحقائق الإيمانية. على سبيل المثال، استخدموا الأدلة العقلية (كدليل الحدوث) لإثبات وجود الله ووحدانيته، وهي حقائق أصلها من الوحي. فالعقل هنا كان خادمًا للنقل، يوضح براهينه ويدفع الشبهات عنه، لا حكمًا عليه.

٣) **قواعد اللغة العربية**: بما أن القرآن نزل بلسان عربي مبين، فإن فهمه فهمًا دقيقًا يتطلب التضلع في علوم اللغة العربية من نحو وبلاغة ودلالة.

٤) **اجتهادات الصحابة والسلف**: كانت حياة الصحابة تطبيقًا عمليًّا لهذا التكامل. فعمر بن الخطاب، رضي الله عنه، كان يجتهد برأيه في النوازل الجديدة مستنيرًا بروح الشريعة ومقاصدها العامة التي استقاها من الوحي.

٥) **حاكمية الوحي ومحكومية العقل**: العلاقة بينهما قائمة على أن الوحي هو المصدر الحاكم للتشريع والقيم، والعقل أداة للاجتهاد في فهم هذا الوحي وتنزيله على الواقع، لا أن ينشئ أحكامًا من خارجه(١).

٦) **التمييز بين القطعي والظني** :من أهم الضوابط هو أن التعارض الحقيقي مستحيل بين قطعي العقل وقطعي النقل. فإذا وقع تعارض، فهو إما أن النص ليس قطعي الثبوت أو الدلالة أو أن ما نُسب إلى العقل ليس من البدهيات أو البراهين القاطعة، بل مجرد ظنون أو نظريات.

٧) **أنموذج العلماء الطبيعيين المسلمين**: انطلق العلماء المسلمون في العصر الذهبي من رؤية قرآنية تحث على "النظر في ملكوت السماوات والأرض". كان الوحي هو المحفز لهم على البحث العلمي، والإيمان بإله واحد حكيم خلق الكون بقوانين وسنن ثابتة هو ما أعطاهم الثقة في إمكانية اكتشاف هذه القوانين. فالعالم المسلم لم يكن يرى تعارضًا بين دراسة حركة الأفلاك وبين الإيمان بالله، بل كان يرى في إتقان صنع الكون دليلًا على عظمة الخالق. فكانت حركة العقل التجريبي منضبطة بالرؤية الإيمانية الكلية.

ويبين الوحي المنهج للعقل ويوضح له ما يعجز عنه بمفرده، فالنصوص القرآنية والسنة النبوية رسخت أن العلم الشرعي يُكتسب من الوحي، والعقل يصبح أداة فعّالة إذا انقاد لهدي الوحي(٢).

وقد وضع العلماء ضوابط واضحة لعلاقة العقل بالنقل، من أهمها أن العقل تابع للوحي وليس حاكمًا عليه، فلا يجوز معارضة النصوص القطعية الثبوت والدلالة بالآراء العقلية المجردة.

ومن أهم الركائز التي لابد من إدراكها وإعادة صياغتها الاقتداء بالسلف في فهم نصوص الشرع والعمل(٣).

إن دراسة هذه المعالم والنماذج التراثية تظهر بوضوح أن الفكر الإسلامي لم يكن فكرًا جامدًا أو رافضًا للعقل، بل أنتج ثروة منهجية ومعرفية هائلة في محاولته بناء علاقة متوازنة ومتكاملة بين هداية السماء ونور البصيرة الإنسانية تتجلى في الآتي.

---

(١) ينظر بحث: العلاقة بين حاكمية الوحي واجتهاد العقل (دراسة أصولية) (ص: ١٧).

(٢) مقال بعنوان: الوحي والعقل، لـ أ. د. فؤاد محمد موسى، رابط المقال:

https: / /www.alukah.net /culture /٠ /١٦٤١٥٢/

(٣) مقال بعنوان: ضوابط في منهج التفكير الإسلامي، لـ د. أحمد أمحرزي العلوي، رابط المقال:

https: / /www.arrabita.ma /٪

١. **العقل دليل والوحي حاكم مهيمن جليل**: :يقرر الغزالي أصالة العقل في الوصول إلى قبول الوحي، فيقول: إن «المعلوم بدليل العقل دون الشرع فهو حدوث العالم ووجود المحدث وقدرته وعلمه وإرادته، فإن كل ذلك ما لم يثبت لم يثبت الشرع، فكل ما يتقدم في الرتبة على كلام النفس يستحيل إثباته بكلام النفس وما يستند إليه، ونفس الكلام أيضًا في ما اخترنا لا يمكن إثباته بالشرع...»(١).

وفي الجملة فإن الفرق الإسلامية تكاد أن تتفق على أن العقل يؤسس لقبول الوحي في الإجمال لكنه لا يمكنه الاهتداء إلى التفاصيل، فهذا القاضي عبد الجبار الهمداني، يقول: أن «كل ما على المكلَّف فعله أو تركه قد ركَّب الله جُمَلَه في العقول، وإنما لا يكون في قوة العقول التنبيه على تفاصيلها، سواء كان في أمور الدين أو في أمور المعاش ومنافع الناس، وسواء كان الديني من باب العقليات أو الشرعيات. وهذا الفصل إذا عرفته تبينت أن كل التكاليف مطابقة للعقول وكذلك أحوال المعاملات وما يتصل بالضرر والنفع...» (٢).

٢. **القرآن يحدد المصادر الأصلية لتنمية العقل المكتسب**:

يبين ابن كثير رحمه الله أن الله يرزق الإنسان أدوات المعرفة الحسية (السمع والأبصار) والعقلية (الأفئدة) التي يُميز بها بين الأشياء. كما يحث الوحي على تحويل المعرفة الحسية إلى دليل عقلي على الغيب، فيقول عند تفسير الآية: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، « ذكر منَّته على عباده في إخراجه إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئًا، ثم بعد هذا يرزقهم السمع الذي به يدركون الأصوات والأبصار التي بها يحسون المرئيات والأفئدة وهي العقول.... والعقل به يميز بين الأشياء ضارها ونافعها وهذه القوى والحواس تحصل للإنسان على التدرج قليلًا قليلًا وكلما كبر زيد في سمعه وبصره وقوي عقله حتى يبلغ أشده»(٣).

٣. **المادية جزء من الحياة العقلية، والمتعة الإنسانية لكنها لا يمكن أن تعرف بدقة وتوازن إلا عن طريق الوحي**:

---

(١) الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي (ص ١١٥).

(٢) المجموع في المحيط بالتكليف، عبد الجبار المعتزلي، المطبعة الكاثوليكية ببيروت، نشر وتصحيح الأب جين يوسف اليسوعي، (١/ ٢٢).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٩٠).

يعظم ابن كثير المعرفة القرآنية التي تستعمل العقل في إدراك الحس، وتحوله إلى دليل على الغيبيات، ففي قوله تعالى: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: ١١]، قال: «وهي الأرض التي كانت هامدة فلمّا نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، من أزاهير وغير ذلك، مما يحار الطرف في حسنها، وذلك بعد ما كانت لا نبات بها فأصبحت تهتز خضراء، فهذا مثال للبعث بعد الموت والهلاك كذلك يحي الله الموتى وهذا المشاهد من عظيم قدرته بالحس أعظم مما أنكره الجاحدون للبعث»(١).

٤. **إعمال العقل في التجربة كمصدر معرفي معتمد**: تُعد التجربة مصدرًا معرفيًّا أقره الوحي وحث عليه. ويتجلى ذلك في نصيحة موسى لنبينا محمد عليهما السلام في حديث الإسراء، حيث استند إلى خبرته السابقة، فقال: «**وَإِنِّي وَاللهِ قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ**»(٢). وعلق ابن حجر على ذلك بقوله: «**وفيه أن التجربة أقوى في تحصيل المطلوب من المعرفة الكثيرة**»(٣).

الأدلة العقلية المستخلصة من القرآن لدى المفكرين المسلمين(٤):

استلهم علماء الإسلام وفلاسفته أدلة عقلية متنوعة من المنهج القرآني، أبرزها:

١) **دليل الاختراع**: وجود الكائنات الحية من العدم يدل بالضرورة على مُخترع.

٢) **دليل العناية**: كل ما في الكون، من الشمس والقمر إلى أصغر المخلوقات، مسخر وملائم لحياة الإنسان، مما يثبت وجود عناية إلهية مقصودة.

وهذا الدليل يركز على الكيفية التي تم بها تصميم الكون ليكون صالحًا للحياة، فالتوافق الدقيق بين الظروف الكونية وحاجات الإنسان لا يمكن أن يكون وليد صدفة عمياء، بل يشير إلى قصد وتدبير.

٣) **دليل الحدوث**: فالعالم متغير وحادث (أي له بداية)، وكل حادث لا بد له من مُحدِث أوجده. هذا الدليل كان عماد علم الكلام لإثبات وجود الله.

وعند الأشعري: يطبقه على الإنسان، الذي ينتقل من طور إلى طور (نطفة، فطفل، فشاب، فشيخ) وهو لا يملك القدرة على خلق نفسه أو دفع الموت عنها، مما يثبت وجود خالق قادر يدبر أمره.

٤) **حجة إبراهيم عليه السلام (دليل التغير)**:

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٩٦).

(٢) صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، بَابُ الْمِعْرَاجِ، حديث رقم (٣٨٨٧).

(٣) فتح الباري لابن حجر (٧/ ٢١٨).

(٤) ينظر: أصول وشواهد النظر العقلي في القرآن والفكر الإسلامي (د. عبد القادر محمود)، المكتبة الشاملة، مرقم ترقيمًا آليًّا.

وهذا مستوحى من حوار سيدنا إبراهيم مع قومه (سورة الأنعام)، حيث استدل بأُفول الكواكب والقمر والشمس (تغيرها) على أنها لا تصلح أن تكون آلهة، وتوجه بعبادته إلى الخالق الواحد الذي لا يتغير (فاطر السماوات والأرض).

٥) دليل الافتقار (الحاجة الفطرية):

وهو التجاء الإنسان بفطرته إلى قوة عليا عند الشدائد والأخطار هو دليل كامن في النفس على وجود خالق، وهذا الشعور العميق بالضعف والافتقار إلى معين عند العجز الكامل، يُعتبر تجربة إنسانية عالمية تدل على وجود علاقة فطرية بين المخلوق وخالقه.

ثالثًا: مآلات تجاوز العقل لحدوده والرجوع إلى نور الوحي

نلاحظ أن الله عز وجل فرَّق بين العقلاء وأولي الألباب الذين لا بد أن تقودهم عقولهم إلى الحقائق، وأعظمها حقيقة وحدانية الله، وبين الغافلين من المستكبرين الذين يغلفون أفعالهم بالعقل، ولذا أنذر الله الجاهلين الذين لا يملكون علمًا حقيقيًّا وجدوه عن طريق العقل الصريح، أو عن طريق النقل الصحيح، فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ [الحج: ٨، لقمان: ٢٠].

والتاريخ الفكري يزخر بشهادات كبار الأئمة الذين خاضوا في غمار الفلسفة وعلم الكلام، ثم أقروا في نهاية المطاف بقصور العقل وحده، وأعلنوا رجوعهم إلى المنهج القرآني الصافي.

فهذا الإمام فخر الدين الرازي، بعد رحلة طويلة مع العقل المجرد، يعلن بقوله: «**ولقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلًا ولا تروي غليلًا. ورأيتُ أقربَ الطرق طريقةَ القرآن، [أقرأ في الإثبات: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: ٥]، {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} [فاطر: ١٠]، وأقرأ في النفي: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: ١١]، {وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} [طه: ١١٠]، {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} [مريم: ٦٥]... ومن جرَّب مثل تجربتي عرفَ مثل معرفتي**»[(١)]، وقال: «**ولقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن العظيم. لأنه يسعى في تسليم العظمة والجلال بالكلية لله تعالى. ويمنع من التعمق في ايراد المعارضات والمناقضات**»[(٢)].

---

(١) الانتصار لأهل الأثر المطبوع باسم «نقض المنطق» (ص ١٠٦، ١٠٧).

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي (١٣/ ١٤٤).

وكذلك الإمام الجويني الذي قال عند موته: «**لقد خضت البحر الخضم، وخليت أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت في الذي نهوني عنه. والآن فإن لم يتداركني ربي برحمته، فالويل لابن الجويني. وها أنذا أموت على عقيدة أمي، أو قال: وعلى عقيدة عجائز أهل نيسابور**»[1].

تظهر هذه النماذج وغيرها أن محاولة جعل العقل حاكمًا على الوحي، أو الخوض به في مسائل لا يملك أدواتها، تنتهي بأصحابها الصادقين إلى الحيرة، والاعتراف بأن اليقين والطمأنينة لا يكونان إلا في التسليم لهداية السماء ونور الوحي.

وقال السيد الإمام حُميدان بن يحيى ن القاسم رحمه الله:

وما الذي ألجاهُمُ إلى الخَطَرْ ... والخوضِ في علمِ الغُيُوبِ بالنَّظَرْ
وما يقال فيه للمخطي: كَفَرْ ... وفي النبيِّ أُسوةٌ ومُعتبرْ
وقدوةٌ محمودةٌ لمن شَكَرْ ... ولم يُخالف بالوُهُومِ والفِكَر
فإنَّهُ للفكرِ في الله حَظَرْ ... وفي عجيب الصُّنْعِ بالفكر أمَر
فمن يكونُ بعدهُ مِنَ البَشَرْ ... أدرى بمَا يأتي به وما يَذَرْ
ليس الإلهُ الواحدُ القُدُّوسُ ... كما يظُنُّه الذي يقيس
من وصفُه التشريكُ والتَّجنيسُ ... بل قولُهُم مشاركٌ تلبيسُ
إذ كُلُّ فِكرٍ دُونَه محبُوسُ ... وكلُّ ما تَخَالُهُ النفوسُ
فمُدركٌ مُكيَّفٌ محسوسُ ... فاحذر شُيُوخًا علمُها تلبيسُ
وهمُّها التَّدقيق والتدلِيسُ ... قد حازَها دون الهُدى إبليسُ[2].

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٧٣).

(٢) العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم (٣/ ٤١٤).

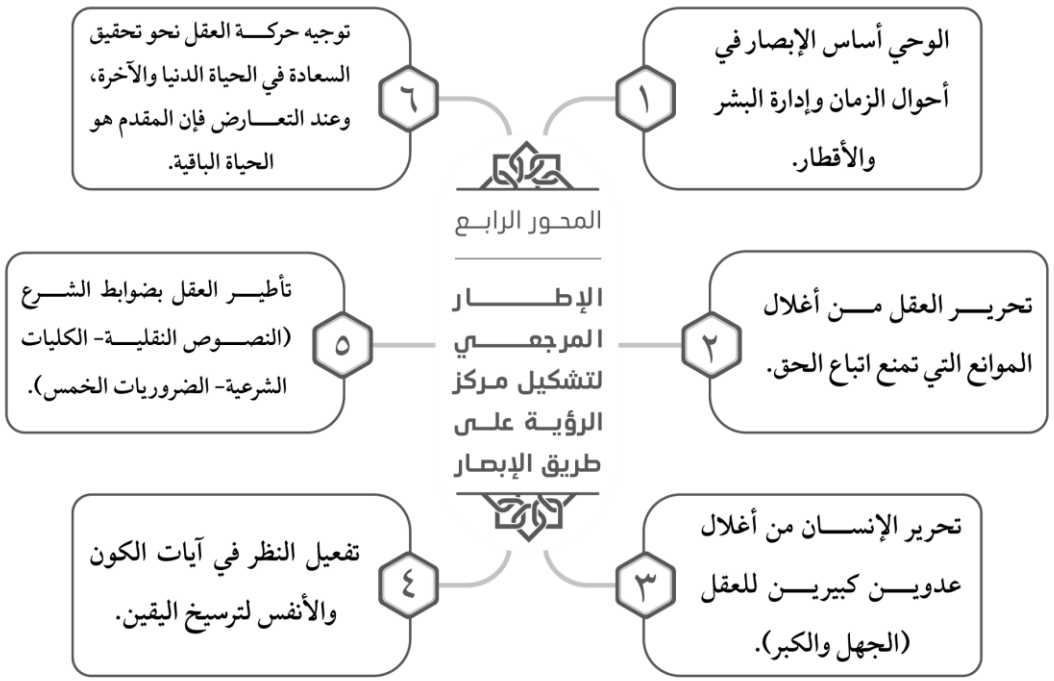

المحور الرابع

الإطار المرجعي لتشكيل مركز الرؤية على طريق الإبصار

إن الهدف الأسمى من تكامل الوحي والعقل في الإسلام هو تشكيل "مركز رؤية" وبصيرة قلبية لدى الإنسان، يهتدي بنورها في دروب الحياة. ويقوم هذا الإطار المرجعي على منهج متكامل يُمكِّن الإنسان من تكوين رؤية صحيحة (إبصار) للعالم والوجود، ويرتكز على ستة أسس متكاملة:

أولها، **أسبقية الوحي كمصدر للمعرفة**، حيث يقدم الوحي "الرؤية الكلية" التي تحدد موقع الإنسان في الوجود وغايته، وتجعل من الكون كتابًا منظورًا يدل على الخالق. ثم يأتي **ضرورة تحرير العقل** من العوائق التي تحجبه عن الحق، كالجهل والعناد والأهواء.

بعد ذلك، يأتي دور العقل المستنير بنور الوحي كأداة "للإبصار"، من خلال **تفعيل النظر العقلي في آيات الكون والنفس**، والتفكر فيها واستخلاص العبر منها: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٠٤].

ولضمان سلامة هذا النظر، لا بد من **تأطير حركة العقل** ضمن مرجعية الوحي، فبدون هذا الإطار قد يتخبط العقل في تصورات جزئية منحرفة. وأخيرًا، يتم **توجيه حركة العقل نحو تحقيق السعادة في الدنيا**

والآخرة، وبذلك يتحقق للإنسان المسلم التوازن المنشود بين متطلبات الروح والجسد، وبين النظر في عالم الشهادة والإيمان بعالم الغيب، وتفصيل ذلك كما يأتي:

أولًا: الوحي أساس الإبصار في أحوال الزمان وإدارة البشر والأقطار، فالعقل يسلم للنص بعد الإثبات الأولي:

إن المبدأ المؤسس للرؤية الإسلامية هو أن الوحي هو المصدر الأساسي للمعرفة والهداية في فهم سنن الكون، وإدارة شؤون البشر، وتنظيم المجتمعات .ودور العقل يأتي تاليًا؛ فبعد أن يثبت العقل صدق الوحي بالأدلة الأولية (كالإعجاز القرآني)، فإنه يسلم له في الأمور التي تقع خارج نطاق قدراته التجريبية والمادية. هذا التسليم ليس إلغاءً للعقل، بل هو إقرار بحدوده واعتراف بمصدرية العلم الإلهي.

ويؤكد هذا الأصل الإمام الطحاوي في قوله:«ولا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام، فمن رام عِلْمَ ما حُظر عنه علمه ولم يقنع بالتسليم فَهْمُه حجبه مرامُه عن خالص التوحيد وصافي المعرفة وصحيح الإيمان، فيتذبذب بين الكفر والإيمان، والتصديق والتكذيب، والإقرار والإنكار، موسوسًا تائهًا شاكًّا، لا مؤمنًا مصدقًا، ولا جاحدًا مكذبًا»(١).

هذا التسليم المنهجي يقتضي بالضرورة فهم النص الشرعي وفق قواعده اللغوية وأساليبه البيانية التي نزل بها، لا أن يُخضِع العقل النص لمعانيه ومصطلحاته الخاصة. فالتعامل مع القرآن يتطلب فهمًا عميقًا للغة العربية وأساليبها، وهو ما حذر منه الإمام الشاطبي بقوله:«**فإن كثيرًا مِنَ النَّاسِ يَأْخُذُونَ أَدِلَّةَ الْقُرْآنِ بِحَسَبِ مَا يُعْطِيهِ الْعَقْلُ فِيهَا، لَا بِحَسَبِ مَا يُفهم مِنْ طَرِيقِ الْوَضْعِ، وَفِي ذَلِكَ فَسَادٌ كَبِيرٌ وَخُرُوجٌ عَنْ مَقْصُودِ الشَّارِعِ**»(٢).

والدليل العقلي الأولي على صدق الوحي القرآني هو **إعجازه البياني** الذي تحدى أئمة البلاغة والفصاحة.

إن إعجاز القرآن لا يكمن في مجرد الفصاحة، بل في تأثيره العميق وقدرته على مخاطبة العقل والوجدان معًا؛ فآيات وعيده تقشعر منها الجلود، وآيات وعده تبعث على الأمل والنشاط، وقصصه تهدي العقول إلى حقائق الماضي والمستقبل. هذا التأثير الشامل والتركيب المحكم لا يمكن أن يكون إلا من مصدر إلهي عليم وحكيم.

---

(١) متن العقيدة الطحاوية: شرح وتعليق الألباني (ص٤٣).

(٢) الموافقات (١/ ٣٩).

وقد سلب القرآن عقول أئمة البيان، الذين هم كما يشير ابن الوزير رحمه الله سحرة الكتابة والخطابة، ومهرة البراعة واليراعة أساة أساليب الكلام إذا اعتل، وبناة أساسات البيان إذا اختل[١].

ويُستشهد هنا بقدرة البلغاء كواصل بن عطاء على تطويع اللغة، ومع ذلك عجز هو وغيره من فصحاء العرب عن مجاراة أسلوب القرآن، فأسلموا له القياد.

فهذا واصل بن عطاء الذي كان يتجنب في كلامه الراء، ولا يتبلد في محافل الكبراء قيل له كيف تقول: ركب فرسه وجر رمحه وأمر الأمير بحفر بئر على قارعة الطريق؟ فقال على البديهة: أقول: اعتلى جواده، وسحب ذابله، وأوجب الخليفة نقب قليب على الجادة[٢]، وفيه يقول بعضهم:

وَيجْعَل البُرَّ قَمحًا فِي تصرُّفه وَخَالف الراءَ حَتَّى احتالَ للشَعَرِ

وَلم يُطِق مَطَرًا والقول يُعجِله فعادَ بالغَيثِ إشفاقًا من الْمَطَر[٣]

ثم قرر أن القرآن ليس من جنس السحر، وذلك لأن الإعجاز فيه، إنما هو في حسن ترتيبه وإحكام ترصيفه، ومطابقة أفانينُه للطيف حالتي القبض والبسط، وموافقة أساليبه لرقيق شأني القطع والربط، فوعيده يبكي العيون وتستحلب به الشؤون وتقشعر له الجلود ويقطع نياط القلوب بما فيه من ذكر الخلود، ووعده يثير النشاط ويبعث الانبساط، وأقاصيصه تسلي المحزون وتهدي إلى القلوب غرائب العلوم مما كان ومما يكون، فكيف يكون ما هذه صفاته إلا كلام قادر عالم؟!

ثانيًا: تحرير العقل من أغلال الموانع التي تمنع اتباع الحق:

لكي يؤدي العقل وظيفته في إبصار الحق، لا بد من تحريره من العوائق المعرفية والنفسية التي تحجبه عن الرؤية السليمة. وقد لخصت سورة البقرة في مقطع محكم أبرز هذه الموانع التي تحول دون قبول الحق، ويمكن توضيحها من خلال الشكل البياني الآتي الذي يستعرض خمسة عوائق أساسية وردت في الآيات (١٥٩-١٧١)، وهي كتمان العلم، والتبعية العمياء للقادة، والخوف المعيشي، واتباع خطوات الشيطان، والعصبية والتقليد للآباء[٤].

---

(١) الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم - صلى الله عليه وسلم - (٢/ ٥٩٥).

(٢) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز (١/ ١٧٥).

(٣) البيان والتبيين (١/ ٤٢).

(٤) ينظر: الوسيط في تفسير سورة البقرة وبصائرها (ص: ٢٠٩).

ثالثًا: تحرير الإنسان من أغلال عدوين كبيرين للعقل:

الأول: الجهل والجاهلين: وهو الاعتماد على التخمين والأهواء الشخصية بدلًا من العلم والبرهان: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ [النجم: ٢٣]، وقد وصف القرآن هذه الحالة بأنها من صفات الجاهلية فقال تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وجعل أهل العلم قادة الرأي في العالم، فقال: (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ) [الأنبياء: ٧].

الثاني: المعاندين المستكبرين الذين يعرفون الحق وينكرونه كما قال الحق: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الأنفال: ٦]، ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]، ثم يتنعتون ويطلبون الآيات ثم لا يؤمنون بها قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنْ الأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٩٠- ٩٢].

رابعًا: تفعيل النظر في آيات الكون والأنفس لترسيخ اليقين:

بعد تأسيس مرجعية الوحي وتحرير العقل، يحث المنهج القرآني على استخدام العقل كأداة للنظر والتفكر في الخلق، باعتباره كتاب الله المنظور الذي يهدي إلى الخالق.

وهذا النظر المنهجي يحرر الإنسان من المعتقدات الفاسدة والتصورات الخاطئة. وقد تكرر الحث على ذلك في آيات كثيرة، منها:

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ) [الأعراف: ١٨٥]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ * وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٦ – ٨]، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وهنا يبرز سؤال منهجي جوهري حول طبيعة هذا النظر العقلي المطلوب: هل هو مجرد تأمل فطري عفوي، أم أنه عملية استدلالية تحتاج إلى أدوات منهجية صارمة لضمان صحتها ودقتها؟

هذه القضية تحديدًا هي ما يجعل موقف الإمام الغزالي ونقاش العلماء حوله في صميم هذا المحور. فالغزالي، في سياق تأكيده على ضرورة المنهجية الصارمة في الاستدلال، اعتبر أن **علم المنطق (معرفة الحد والبرهان)** ليس مجرد علم فرعي، بل هو مقدمة لا غنى عنها لكل العلوم، وبدونها لا يمكن الوثوق بنتائج العقل.

وقد أثبت هذا الرأي بعبارة قاطعة في مقدمة كتابه الأصولي **"المستصفى:"**

«هَذِهِ الْمُقَدِّمَةُ [مقدمة المنطق] لَيْسَتْ مِنْ جُمْلَةِ عِلْمِ الْأُصُولِ... بَلْ هِيَ مُقَدِّمَةُ الْعُلُومِ كُلِّهَا، وَمَنْ لَا يُحِيطُ بِهَا فَلَا ثِقَةَ لَهُ بِعُلُومِهِ أَصْلًا»(١).

فالغزالي يقرر هنا أن "الإبصار" السليم لا يمكن أن يكون فوضويًا، بل يجب أن يُضبط بقواعد المنطق لضمان عدم الوقوع في الخطأ، سواء في فَهْمِ الوحي أو في الاستدلال بآيات الكون. لكن هذا التقرير الجازم لم يكن محل إجماع، بل أثار انتقادات مهمة تكشف عن وجود منهجين مختلفين في تحقيق المعرفة واليقين.

فقد عقد ابن الصلاح في كتابه: "طبقات الفقهاء الشافعية" فصلًا لبَيَان أَشْيَاء مهمة أُنْكرت على الإِمَام الْغَزالِيّ فِي مصنفاته وَلم يرتضها أهل مذْهبه وَغَيرهم من الشذوذات فِي متصرفاته، ونقل عن يوسف الدمشقي (مدرس نظامية بَغْدَاد) أنه كان يُنكر هذا التعميم من الغزالي ويحتج بأعلى نموذج لليقين في الإسلام، فيقول: «فَأَبُو بكر وَعمر وَفُلَان وَفُلَان – يَعْنِي أَن أُولَئِكَ السَّادة – عظمت حظوظهم من البلج(٢) وَالْيَقِين، وَلم يحيطوا بِهَذِهِ الْمُقدمَة وأشباهها»(٣).

وهذا النقد يطرح سؤالًا جوهريًا: إذا كان اليقين الأعلى قد حصله جيل الصحابة بصفاء الفطرة وقوة الإيمان المباشر دون الحاجة للمنطق الأرسطي، فكيف يكون هذا المنطق شرطًا مطلقًا للثقة في العلوم؟! وهذا الاعتراض يشير إلى أن "الإبصار" الحق قد يتحقق عبر مسار الفطرة السليمة والقلب النقي، وليس بالضرورة عبر القوالب المنطقية المكتسبة.

وَلأبي عبد الله الْمَازرِيّ رِسَالَة يذكر فِيهَا حَال الْغَزالِيّ وَحَال كِتَابه " الْإِحْيَاء "، أصدرها فِي حَيَاة الْغَزالِيّ، ومما قاله فيها: «استبحر فِي الْفِقْه، وَفِي أصُول الْفِقْه، وَهُوَ بالفقه أعرف، وأما أصُول الدِّين فَلَيْسَ بالمستبحر فِيهَا، شَغَلَهُ عَن ذَلِك قِرَاءَته عُلُوم الفلسفة، وكَسَبَتْهُ قِرَاءَةُ الفلسفة جرْأَةً على الْمعَانِي، وتسهيلًا للهجوم على الْحَقَائِق»(٤).

---

(١) المستصفى» (ص١٠).

(٢) كذا في طبقات الفقهاء الشافعية (١/ ١٢٣١)، وفي شرح العقيدة الأصفهانية لابن تيمية (ص: ٨٥): (الثلج)، وفي رفع الحاجب للسبكي (١/ ٢٧٩): (العلم) ولعلها أنسب.

(٣) طبقات الفقهاء الشافعية (١/ ٢٥٢).

(٤) طبقات الفقهاء الشافعية (١/ ٢٥٥).

وهكذا، يتضح أن إدراج كلام الغزالي والنقد الموجه إليه ليس استطرادًا، بل هو في **صميم تحديد "الإطار المرجعي لتشكيل الرؤية** ."فهو يكشف عن وجود اتجاهين رئيسيين في تحديد الأداة العقلية للإبصار: اتجاه يرى ضرورة **"الأداة المنطقية "**لضبط العقل (يمثله الغزالي)، واتجاه يرى أن **"صفاء الفطرة وسلامة المنهج الإيماني الأول "**كافيان لتحصيل اليقين (يمثله منتقدو الغزالي). هذا الجدل إذًا يخدم المحور تمامًا عبر إظهار أن "طريق الإبصار" نفسه كان وما زال محل نظر وتجاذب منهجي عميق.

وحتى تتم معرفة عقلية الإمام الغزالي من خلال ترتيب مؤلفاته ينظر هذا الشكل[1]:

وقد قسم حياة الغزالي إلى خمس فترات :

(أ) السنوات الأولى (سنة ٤٦٥ — ٤٧٨) وفيها ألف :

١ — التعليقة في فروع المذهب .
٢ — المدخول في علم الأصول .

(ب) الفترة الأولى من التعليم العام (سنة ٤٧٨ - ٤٨٨) وفيها ألف :

٣ — البسيط
٤ — الوسيط
٥ — الوجيز
٦ — خلاصة المختصر
٧ — المنتحل في علم الجدل
٨ — مآخذ الخلاف
٩ — لباب النظر
١٠ — تحصين المآخذ
١١ — المبادئ والغايات
١٢ — شفاء العليل
١٣ — فتوى ليوسف بن تاشفين
١٤ — فتوى خاصة بلعن يزيد بن معاوية
١٥ — غاية الغور في دراية الدور
١٦ — تهافت الفلاسفة
١٧ — مقاصد الفلاسفة
١٨ — معيار العلم
١٩ — معيار العقول
٢٠ — محك النظر في المنطق
٢١ — ميزان العمل
٢٢ — المستظهري
٢٣ — حجة الحق
٢٤ — الاقتصاد في الاعتقاد
٢٥ — الرسالة القدسية في قواعد العقائد
٢٦ — المعارف العقلية والأسرار الإلهية
٢٧ — قواعد العقائد

(جـ) فترة الخلوة والانقطاع (سنة ٤٨٨ — سنة ٤٩٩) وفيها ألف :

٢٨ — إحياء علوم الدين
٢٩ — كتاب في مسئلة كل مجتهد مصيب
٣٠ — جواب إلى مؤيد الملك حينما دعاه لمباردة التدريس بالنظامية
٣١ — مفصل الخلاف
٣٢ — جواب المسائل الأربع التي سألها الباطنية بهمذان
٣٣ — المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى
٣٤ — رسالة في رجوع استعداد الله إلى ذات واحدة على رأى المعتزلة والفلاسفة
٣٥ — بداية الهداية
٣٦ — الوجيز
٣٧ — جواهر القرآن
٣٨ — الأربعين في أصول الدين
٣٩ — المضنون به على غير أهله
٤٠ — المضنون به على أهله
٤١ — الدرج المرقوم بالجداول
٤٢ — القسطاس المستقيم
٤٣ — فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة
٤٤ — القانون الكلي في التأويل
٤٥ — كيميا سعادت (فارسي)
٤٦ — أيها الولد
٤٧ — نصيحة الملوك
٤٨ — زاد آخرت
٤٩ — رسالة إلى أبي الفتح أحمد بن سلامة الدمي بالموصل
٥٠ — الرسالة اللدنية
٥١ — رسالة إلى بعض أهل عصره
٥٢ — مشكاة الأنوار
٥٣ — تفسير ياقوت التأويل
٥٤ — الكشف والتبيين في غرور الخلق أجمعين
٥٥ — تلبيس إبليس

(د) الفترة الثانية من التعليم (سنة ٤٩٩ — سنة ٥٠٣) وفيها ألف :

٥٦ — المنقذ من الضلال
٥٧ — عجائب الخواص
٥٨ — غاية الغور في دراية الدور
٥٩ — المستصفى من علم الأصول
٦٠ — سر العالمين وكشف ما في الدارين
٦١ — الإملاء على مشكل الإحياء

(هـ) السنوات الأخيرة (سنة ٥٠٣ — سنة ٥٠٥) وفيها ألف :

٦٢ — الدرة الفاخرة في كشف علوم الآخرة
٦٣ — إلجام العوام عن علم الكلام
٦٤ — منهاج العابدين

(١٧)

خامسًا: تأطير حركة العقل كشرط لتكوين رؤية منضبطة

لكي يكون العقل أداة فاعلة في "تشكيل مركز الرؤية"، لا يمكن أن تكون حركته مطلقة، بل يجب أن تعمل ضمن إطار مرجعي يضبطها ويوجهها، وإلا كانت الرؤية الناتجة مشوهة أو منحرفة.

وهذا الإطار الحاكم الذي يضمن سلامة "الإبصار" يتكون من ثلاثة ضوابط أساسية:

١) **النصوص النقلية الثابتة**: فهي تمثل مصدر النور الأول الذي يستضيء به العقل، وتمنحه المبادئ والتصورات الكبرى التي تصحح مساره وتمنعه من الخوض فيما لا يدركه.

---

(١) بحث لموريس بويج سنة ١٩٥٩م بعنوان: بحث في الترتيب التاريخي لمؤلفات الغزالي"، وقد أثنى عليه عبد الرحمن بدوي، إلا أنه ذكر أن قدم ترتيبًا للكتب بشكل مختلف بناء على إشارات الغزالي في كتبه، ثم بالاستناد إلى المصادر التاريخية التي تتحدث عن حياة الغزالي خصوصًا (المنقذ من الضلال). ينظر: مؤلفات الغزالي لعبد الرحمن بدوي (ص: ١٦، ١٧).

٢) **الكليات الشرعية**: وهي المبادئ العامة للشريعة (كالعدل والرحمة) التي تضمن أن تكون الرؤية الجزئية متناغمة مع الرؤية الكلية للشريعة.

٣) **الضروريات الخمس** (الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال): إن وجود "حفظ العقل" ضمن هذه المنظومة يعني أن الرؤية السليمة هي التي تعمل على تحقيق التكامل بين هذه الضروريات لا التصادم. فلا يمكن لعقل سليم أن يشكل رؤية تهدم الدين أو النفس باسم الحرية العقلية المطلقة.

هذا التأطير المنهجي هو ما قصده الإمام الشاطبي حين أكد على العلاقة التكاملية والتراتبية بين الشرع والعقل، حيث إن الرؤية العقلية الصحيحة لا تستمد استقلاليتها بمعزل عن الوحي، بل من خلاله. يقول رحمه الله: «وَالْعَقْلُ إِنَّمَا يَنْظُرُ مِنْ وَرَاءِ الشَّرْعِ»[١]. فالشرع يوفر "الإطار" و"زاوية النظر" الصحيحة، ثم يأتي العقل ليبصر من خلالها.

ويؤكد هذه المنهجية في تشكيل الرؤية بقوله:«إِذَا تَعَاضَدَ النَّقْلُ وَالْعَقْلُ عَلَى الْمَسَائِلِ الشَّرْعِيَّةِ؛ فَعَلَى شَرْطِ أَنْ يَتَقَدَّمَ النَّقْلُ فَيَكُونَ مَتْبُوعًا، وَيَتَأَخَّرَ الْعَقْلُ فَيَكُونَ تَابِعًا، فَلَا يَسْرَحُ الْعَقْلُ فِي مَجَالِ النَّظَرِ إِلَّا بِقَدْرِ مَا يُسَرِّحُهُ النَّقْلُ»[٢].

سادسًا: توجيه حركة العقل نحو تحقيق السعادة أو الحياة الطيبة في الحياة الدنيا والآخرة، وعند التعارض فإن المقدم هو الحياة الباقية:

إن الرؤية المنضبطة لا تكون متكاملة ما لم تكن موجهة نحو غاية صحيحة. وهي: تحقيق السعادة أو "الحياة الطيبة" في الدنيا والآخرة.

فمركز الرؤية الإسلامية ليس ماديًّا بحتًا يهدف لمصالح دنيوية عاجلة، بل رؤية شمولية وممتدة تهدف إلى تحقيق التوازن بين متطلبات الحياة الدنيا ومقاصد الحياة الأخرى. وعند التعارض، فإن الرؤية بعيدة المدى (الإبصار الحقيقي) هي التي تقدم الحياة الباقية.

وهذا ما يقرره الشاطبي رحمه الله بوضوح، معتبراً أن هذه الغاية هي التي تعطي قيمة لكل المصالح والمفاسد الدنيوية: «المصالح المجتلبة شرعًا والمفاسد المستدفعة إنما تعتبر من حيث تقام الحياة الدنيا للحياة الأخرى، لا من حيث أهواء النفوس في جلب مصالحها العادية ودرء مفاسدها العادية»[٣].

---

(١) الموافقات (١/ ٣٠).

(٢) الموافقات (١/ ١٢٥).

(٣) الموافقات (٢/ ٦٣).

وهذا التوجيه للرؤية نحو المصالح الحقيقية هو جوهر الفكر المقاصدي الذي أصَّله علماء كبار مثل العز بن عبد السلام الملقب بـ "سلطان العلماء" في كتابه: "قواعد الأحكام في مصالح الأنام"، حيث اعتبر أن الشريعة كلها تهدف لجلب المصالح ودرء المفاسد.

وفي هذا السياق، يكون دور العقل هو "إبصار" هذه المصالح في الواقع المتغير، ولكن دائمًا في ضوء الغاية الكبرى التي حددها الشرع، وبذلك تتشكل رؤية تجمع بين الانضباط بالمرجع والتوجه نحو الغاية السامية.

الخاتمة

في ختام هذا البحث، الذي استجلى طبيعة العلاقة بين الوحي والعقل في الإسلام، نخلص إلى أن هذه العلاقة عضوية وتكاملية، تقوم على التناغم والتوجيه لا على التصادم والإلغاء.

وقد توصل البحث إلى مجموعة من النتائج المحورية، أبرزها:

١) **الوحي هو الإطار المرجعي الحاكم للعقل**: أثبت البحث أن المنظور الإسلامي لا ينظر إلى الوحي والعقل كمصدرين متنافسين، بل يجعل من الوحي مصدرًا أعلى وأصليًا للمعرفة، يقدم الحقائق الكلية والقيم المطلقة والتشريعات التي تهدي العقل وتصحح مساره.

٢) **تنمية العقل مقصد قرآني أصيل**: أظهر التحليل اللغوي والسياقي أن القرآن الكريم لم يحث على إعمال العقل فحسب، بل سعى إلى تنميته وتفعيله كواحد من أهم مقاصده .ويتجلى ذلك عبر توجيه العقل للنظر في الآيات الكونية والنفسية، واستخدام مصطلحات متعددة (كالعقل، والألباب، والنهى) للإشارة إلى مراتبه ووظائفه، والتحذير الشديد من تعطيله الذي ينزل بالإنسان إلى مرتبة أدنى من الأنعام.

٣) أنشأ الوحي أنماطًا من العقل في إطار تنميته لها، وهي: العقل الوازع الدافع، والعقل المانع القامع، والعقل الرافع النافع.

٤) **الوحي يقدم معرفة يقينية تتجاوز حدود العقل**: يقدم الوحي اليقين في القضايا الغيبية الكبرى (كالمبدأ والمعاد) التي يفشل العقل في الوصول إلى حقيقة قاطعة بشأنها بمفرده .كما أنه مصدر للقيم الأخلاقية والتشريعات الثابتة التي تحفظ مصالح البشر، وهي معرفة محفوظة من التحريف، مما يمنحها موثوقية مطلقة.

٥) **التراث الإسلامي يؤكد حتمية الرجوع إلى نور الوحي**: أثبتت تجارب المدارس الفكرية الإسلامية، وشهادات كبار العلماء والمفكرين الذين خاضوا في غمار الفلسفة والكلام كالإمامين الرازي والجويني، أن تجاوز العقل لحدوده يؤدي إلى الحيرة والشك، وأن اليقين والطمأنينة لا يتحققان إلا بالرجوع إلى المنهج القرآني الصافي والتسليم لهداية الوحي.

وبهذا، يتبين أن الإسلام يقدم رؤية كونية فريدة ومتوازنة، لا تلغي العقل بل تهديه، ولا تتركه يتخبط بل تمنحه نورًا يسير به، لتشكيل بصيرة تمكِّن الإنسان من تحقيق غاية وجوده في إعمار الأرض وتحقيق السعادة في الدنيا والآخرة.

أهم المصادر والمراجع

١) الإتقان في علوم القرآن، لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م.

٢) إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، دار المعرفة – بيروت.

٣) أساس البلاغة، الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م.

٤) أصول وشواهد النظر العقلي في القرآن والفكر الإسلامي، د. عبد القادر محمود، المكتبة الشاملة.

٥) الاقتصاد في الاعتقاد، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤م.

٦) الانتصار لأهل الأثر (نقض المنطق)، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، تحقيق: عبد الرحمن بن حسن قائد، دار عطاءات العلم (الرياض)، ط٣، ١٤٤٠هـ-٢٠١٩م.

٧) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله وسننه وأيامه، لمحمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، ط١، ١٤٢٢هـ.

٨) سُنَن أبي داود، لأَبي دَاوُدَ سُلَيْمَان بن الأَشْعَثِ السِّجِسْتَانِيِّ (ت: ٢٧٥هـ)، كتب الحواشي والتعليقات: محمود خليل.

٩) سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، أبو عيسى (ت: ٢٧٩هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر وآخرون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، ط٢، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

١٠) مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل الشيباني (ت٢٤١هـ)، المحقق: شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

١١) بين الدين والفلسفة: في رأي ابن رشد وفلاسفة العصر الوسيط، (مقال).

١٢) البيان والتبيين، عمرو بن بحر الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ.

١٣) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: د بشار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي – بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

١٤) التبصير في معالم الدين، محمد بن جرير، أبو جعفر الطبري، تحقيق: علي بن عبد العزيز بن علي الشبل، دار العاصمة، ط١، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

١٥) التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت: ١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر - تونس، ١٩٨٤هـ.

١٦) تقريب فتاوى ورسائل شيخ الإسلام ابن تيمية، اعتنى به: أحمد بن ناصر الطيار، دار ابن الجوزي، السعودية، ط١، ١٤٤٦هـ.

١٧) التوحيد ومبادئ المنهجية، د. طه جابر العلواني.

١٨) تهذيب اللغة، أبو منصور الأزهري، تحقق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

١٩) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

٢٠) تأويلات أهل السنة (تفسير الماتريدي)، محمد بن محمد، أبو منصور الماتريدي، تحقيق: د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م..

٢١) جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفرمحمد بن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر، دار التربية والتراث - مكة المكرمة، ط١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

٢٢) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م.

٢٣) درء تعارض العقل والنقل، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: الدكتور محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية.

٢٤) الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم، ابن الوزير، محمد بن إبراهيم الحسني القاسمي، أبو عبد الله اليماني، اعتنى به: علي بن محمد العمران، دار عالم الفوائد.

٢٥) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، ضبطه وصححه: علي عبد الباري عطية، دار الكتب ا، ط١، ١٤١٥هـ-١٩٩٤.

٢٦) زهرة التفاسير، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة، دار الفكر العربي.

٢٧) شرح العقيدة الأصفهانية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: محمد بن رياض الأحمد، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ.

٢٨) شرح الكوكب المنير = المختبر المبتكر شرح المختصر، أبو البقاء محمد بن أحمد الفتوحي، المعروف بابن النجار الحنبلي، تحقيق: محمد الزحيلي - نزيه حماد، مكتبة العبيكان، ط٣، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م..

٢٩) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت، ط٤، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

٣٠) طبقات الفقهاء الشافعية، عثمان بن عبد الرحمن، أبو عمرو، المعروف بابن الصلاح، تحقيق: محيي الدين علي نجيب، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.

٣١) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوي، المكتبة العنصرية، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ.

٣٢) العلاقة بين حاكمية الوحي واجتهاد العقل (دراسة أصولية)، عبد المجيد محمد إسماعيل السوسوة، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت، مج١٤، ع٣٩، ١٤٢٠هـ -١٩٩٩م

٣٣) العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم، ابن الوزير، محمد بن إبراهيم الحسني القاسمي، أبو عبد الله اليماني، حققه: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.

٣٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز.

٣٥) فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، أبو الوليد محمد بن أحمد ابن رشد القرطبي الشهير بابن رشد الحفيد، تحقيق: محمد عمارة، دار المعارف، ط٢.

٣٦) في ظلال القرآن، لسيد قطب (ت: ١٣٨٥هـ)، دار الشروق، بيروت- القاهرة، ط١٧، ١٤١٢هـ.

٣٧) قواعد الأحكام في مصالح الأنام، ا أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء، راجعه وعلق عليه: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٤١٤ هـ - ١٩٩١م.

٣٨) كتاب العين، لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت: ١٧٠هـ)، تحقيق: دمهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

٣٩) الكتاب، عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م..

٤٠) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري، تحقيق: مصطفى حسين أحمد، دار الريان للتراث بالقاهرة، ط٣، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

٤١) المدخل لدراسة القرآن الكريم، محمد بن محمد بن سويلم أبو شُهبة، مكتبه السنة – القاهرة، ط٢، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م..

٤٢) المجموع في المحيط بالتكليف، القاضى عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، عنى بتصحيحه: الأب جين يوسف هوبن اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت.

٤٣) مجموع الفتاوى، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (ت: ٧٢٨هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

٤٤) محاسن التأويل (تفسير القاسمي)، محمد جمال الدين بن محمد سعيد القاسمي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.

٤٥) المحكم والمحيط الأعظم، لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي [ت: ٤٥٨هـ]، المحقق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

٤٦) المستصفى من علم الأصول، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

٤٧) المسودة في أصول الفقه، آل تيمية (ابن تيمية وأبوه وجده)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة المدني.

٤٨) معارج القدس في مدارج معرفة النفس، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، دار الآفاق الجديدة – بيروت، ط٢، ١٩٧٥م..

٤٩) معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارِس بن زكَرِيّا، المحقق: عبد السَّلام محمد هَارُون، اتحاد الكتاب العرب، الطبعة: ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢م.

٥٠) المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، د. محمد حسن حسن جبل، مكتبة الآداب – القاهرة، ط١، ٢٠١٠م.

٥١) معيار العلم في فن المنطق، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، المحقق: الدكتور سليمان دنيا، دار المعارف، مصر، ١٩٦١م.

٥٢) مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، لأبي عبد الله محمد بن عمر الرازي الملقب بفخر الدين الرازي (ت: ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط٣- ١٤٢٠هـ.

٥٣) مفردات غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (ت ٥٠٢هـ)، المحقق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤١٢هـ

٥٤) مؤلفات الغزالي، عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، ط٢، ١٩٧٧م.

٥٥) الموافقات في أصول الشريعة، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط١، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

٥٦) متن العقيدة الطحاوية، أبو جعفر الطحاوي، شرح وتعليق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي – بيروت، ط٢، ١٤١٤هـ..

٥٧) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

٥٨) الوسيط في تفسيرسورة البقرة وبصائرها، عبد السلام مقبل المجيدي (دكتور)، دار زقاق الكتب، إسطنبول، ط٢، ١٤٤٥هـ-٢٠٢٣م.

٥٩) الوحي المحمدي، محمد رشيد بن علي رضا القلموني الحسيني، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

فهرس المحتويات

مقدمة..... ١
تمهيد: التعريف بالوحي والعقل لغة واصطلاحًا ٤
المحور الأول ٧
معرفة الوحي: الإطار المرجعي لمعرفة العقل ٧
أولًا: العقل في القرآن الكريم: ٧
ثانيًا: العقل في السنة النبوية الشريفة: ٨
ثالثًا: أقوال العلماء والمفكرين: ٩
رابعًا: أهم المؤلفات في العلاقة بين الوحي والعقل: ٩
المطلب الأول ١١
مصطلحات العقل في القرآن الكريم ودلالاتها اللغوية والسياقية ١١
أولًا: ألفاظ العقل الصريحة في القرآن الكريم ودلالاتها: ١١
العقل أساس اكتشاف نظام الكون ليحقق أصحاب العقول بذلك الأهداف الكبرى في الحياة: ١٦
الهدف الأول: أن يصل من هذا الاكتشاف إلى اليقين بأن الله لا إله إلا هو الرحمن الرحيم: ١٦
الهدف الثاني: اكتشاف الكون يجعل القلب يتعقل الرابط بين المشاهدة المادية والاعتبار القلبي..... ١٦
الهدف الثالث: أن يستدل العقل بالظواهر الكونية الدورية المنتظمة (كالحياة والموت والليل والنهار) على قدرة الله:١٦
الهدف الرابع: أن يدرك عظمة رب العالمين من خلال سعة ملكه: ١٦
الهدف الخامس: أن يفيد من فهم القوانين القائمة في الكون، والتنوع في الخلق، فيستثمرها في إعمار الحياة، ١٦
الهدف السادس: أن يستدل بالحاضر على الغائب: ١٧
العقل أساس فَهْمِ نص الوحي والعمل به: ١٨
الآثار المترتبة على تعطيل العقل وعدم إعماله: ٢١
ثانيًا: لفظ الألباب (أصحاب العقول) ودلالاته: ٢٣
آيات "أولو الألباب" في القرآن الكريم: الوحي ينمي العقل ليصل إلى مرحلة (اللُّب)..... ٢٣
ثالثًا: لفظ النُّهى (العقول) في الأصل اللغوي والاستعمال القرآني: ٢٦
رابعًا: لفظ الحِجْر (العقل) في الاستعمال القرآني: ٢٨
فخلاصة الأمر أن القرآن الكريم يهدف إلى تنمية العقل وتزكيتها وذلك بالأمور الآتية: ٣٠
المطلب الثاني..... ٣٢
وظائف العقل ومجالات عمله في ضوء هدايات الوحي ٣٢
المحور الثاني ٥٠

معرفة الوحي: القِيَم اليقينية والدلالات المعرفية ٥٠
القيمة الأولى: الوحي يقدم معرفة تتجاوز المعارف البشرية: ٥١
القيمة الثانية: تقديم أصول التشريعات الدقيقة التي تهدي الإنسانية سبل السلام: ٥٢
القيمة الثالثة: مسائل الوحي أساسها الجانب الإيماني الذي يستند إلى الجانب المعرفي: ٥٢
القيمة الرابعة: التكامل بين مصادر المعرفة (الوحي والعقل والحس): ٥٣
القيمة الخامسة: المعرفة التي يقدمها الوحي تقتضي القطع المطلق لأنها صادرة عن الله ٥٥
القيمة السادسة: الثبات وعدم التحريف: فقد حفظ الله الوحي (القرآن والسنة الصحيحة) من التحريف، ٥٦
القيمة السابعة: ربط الحقائق الإيمانية بحقائق الوجود المادية: ٥٦
القيمة الثامنة: حدود العقل البشري محصورة: ٥٧
القيمة التاسعة: إفادة اليقين في مجالات فشل فيها العقل وحده مثل المبدأ والمعاد، ٥٨
القيمة العاشرة: التوجيه العقلي من أعظم وسائل الدعوة إلى الله ٥٨
المحور الثالث ٦٠
معرفة الوحي: الضابط المنهجي لحركة العقل (نماذج من التراث) ٦٠
أولًا: تطور العلاقة بين الوحي والعقل في التراث (المدارس الفكرية) ٦٠
ثانيًا: الضوابط المنهجية لحركة العقل في علاقته بالوحي(): ٦٣
الأدلة العقلية المستخلصة من القرآن لدى المفكرين المسلمين(): ٦٧
ثالثًا: مآلات تجاوز العقل لحدوده والرجوع إلى نور الوحي ٦٨
المحور الرابع ٧٠
الإطار المرجعي لتشكيل مركز الرؤية على طريق الإبصار ٧٠
أولًا: الوحي أساس الإبصار في أحوال الزمان وإدارة البشر والأقطار، فالعقل يسلم للنص بعد الإثبات الأولي: ٧١
ثانيًا: تحرير العقل من أغلال الموانع التي تمنع اتباع الحق: ٧٢
ثالثًا: تحرير الإنسان من أغلال عدوين كبيرين للعقل: ٧٣
رابعًا: تفعيل النظر في آيات الكون والأنفس لترسيخ اليقين: ٧٤
خامسًا: تأطير حركة العقل كشرط لتكوين رؤية منضبطة ٧٦
سادسًا: توجيه حركة العقل نحو تحقيق السعادة أو الحياة الطيبة في الحياة الدنيا والآخرة، و ٧٧
الخاتمة ٧٩
أهم المصادر والمراجع ٨٠
فهرس المحتويات ٨٥